

جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

الحياة العلمية في المجتمع المملوكي من خلال مقامات السيوطي

إعداد
أسماء عودة الحسنات

بإشراف
الأستاذ الدكتور علي المحاسنة

رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليـــــا
استكمالاً لمتطلبات الحصـول على درجـــــة
الماجستير في اللغة قسـم اللغة العربية وآدابهـا

جامعة مؤتة، 2013

الإهداء

إلى لا احد

إلى الواحد الأحد

الذي قال وقوله الحق :-

من ذا الذِي يقْرِض الله قَرضاً حسناً فَيضاعِفَه لَه أَضعافاً كَثِيرةً والله يقْبِض ويبسطُ وإِلَيهِ تُرجعون صدق ا العظيم.

وأجرها إلى روح والدي الطاهرة عودة الحسنات "رحمه ا "

أسماء عودة الحسنات

الشكر والتقدير

الحمد   حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، الحمد والشكر   أولاً وأخيراً، الذي يسر لي أمري وهداني إلى سواء السبيل، وقيض لي زهرةً من خيرةِ عبادهِ الصالحين أصحاب القلوب العامرةِ بحب الخير، أبدأ شكري بمن يمدوننا من فيض دعواتهم المباركة أصحاب العطاء بلا حدود أُمي أمد ا   في عمرها ومتعها بسمعها وبصرها وجعل قلبها عامر بذكرهِ، وأبي رحمه ا   وتغمده بواسع رحمته، وغفر لهم ذنوبهم وخطاياهم إن شاء ا .

أما الشكر الخاص، والأعظم لأستاذي وشيخي وأخي الأكبر الأستاذ الدكتور علي المحاسنة، على ما قدمه لي من يد العون، منذُ قبولهِ الإشراف على رسالتي، التي كانت في مجالٍ غير مجال تخصصهِ وهذا إن دل فانه يدل على وجود بذرة الخير في داخله، ذات الغصون الطيبةِ الثمر، والأصل القائم على تقييد معرفتهِ واحتكارها في مجال تخصصهِ. والشكر الأخر له على تقديرهِ لظروفي التي مررتُ بها أثناء انجاز هذه الأطروحة. وأصدقك عزيزي القارئ أن أستاذي لم يفرض علي أية أراء أو اقتراحات، بل ترك عنان السير في هذه الأطروحة بيدي دون وجود قيود تُفرض، وهذه من أروع مزايا طلب العلم والتضييق فيه .

والشكر المتواصل لأعضاء المناقشة الكرام، منارات العلم المضيئة، التي تضيء أركان كل صرحٍ علمي يزهو بهم، كُلٍ من الأستاذ الدكتور سمير الدروبي، والأستاذ الدكتور أنور أبو سويلم، والأستاذ الدكتور حسن البكور، جزآهم ا   أوفر الأجر والثواب.

والشكر الجزيل لإخواني وأخواتي على دعمهم لي، وكذلك الشكر الموصول لموظفي مكتبتي جامعتي مؤتة والحسين، الذين كانوا لي نعم العون في السراء والضراء، جزآهم ا   أجزل الأجر والثواب، ولن اذكر أسماء، خوفا من نسيان أحدهم، والتمس منهم العذر، والشكر لكل من ساهم في انجازها، ولكل من لامست أنامله أوراقها حباً للمساعدة، جزآهم ا   أوفر الأجر والثواب .

أسماء عودة الحسنات

فهرس المحتويات

قائمة الملاحق

الملخص

الحياة العلمية في المجتمع المملوكي من خلال مقامات السيوطي

أسماء عودة الحسنات

جامعة مؤتة، 2013

تناولت هذه الأطروحة أحد مؤلفات السيوطي، وهي (مقاماته) التي حققها الأستاذ الدكتور سمير الدروبي، حيث تُمثل صورة واضحة وحقيقة لمجتمعٍ يمتاز بكل مقوماتهِ السياسية والاجتماعية والعلمية والدينيةِ والاقتصادية. وما يهمنا في هذا البحث هو الجاني العلمي الذي يعد القاعدة الأساسية لكل مقومات الحياة البشرية، أي لا علم دون مقوم ولا مقوم دون علم كما أشار ابن خلدون في مقدمتهِ

والهدف من هذه الدراسة هو الكشف عن هوية العلم في هذا المجتمع الذي أُتهم بالانحطاط والتخلف كما وصفته بعض الكتب التاريخية والأدبية، إلا أن اللجوء إلى النصوص الأدبية الشعرية منها والنثرية، وهي الورقة الرابحة في يد الباحث للوصول إلى حقيقة الواقع الخاضع لدراسة معتمدا بذلك على المنهج الوصفي القائم على أساس الرجوع إلى مقامات السيوطي، متناولةً ما بث فيها من إشارات حول الموضوع المطروح .

وكشفت الدراسة لنا عن ذلك العصر بأنه عصر التقدم العلمي والرقي الحضاري، إذ كثرت فيه المصنفات وشاعت حركة التأليف التي اعتمدت على خصومات العلماء والتحديات بينهم، التي اختصت بمواضيع شغلت فكرهم من قضايا لغوية ونحوية وفقهية ورواة حديث

Abstract

Mamlouki Society through' The scientific life of Alsyouti's Maqamat"

Asm'a Oudeh Al Hhasanat

Mu'tah University,2013

This dissertation has examined one literary work of Alsyouti author namely his "Maqama" as revised and cultivated by Dr professor Sameer Al Drouby. the maqama represents a clear picture of a society remarkable for its political ,economic, religious and scientific aspects. the study is basically focused on the scientific perspective which is considered the core of all fundamental aspects of human life . that is, no science without facility and no facility without science ,as Ibn khaldoun indicated in his "Introduction" the aim of the study is to explore the aesthetic value of science in society in particular, which was claimed to be retrograde as described in some historical and literary books. However .the only successful key for a scholarly work in ones in depth study is the careful investigation of literary texts and references in both verse and prose ., and based on the descriptive approach implemented in Alsyouti Maqamat .Thus, by shedding the light on the points related to the subject discussed above .

The study has revealed that it is an era characterized by development in science and civilization . for example ,there was a lot of publications and series of articles that viewed controversy among scientists regarding structural, syntactic. jurisprudence issues as well as speech narrative

المقدمة:

الحمد رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، سـيدنا محمد ـ الذي آتاه ا الكتاب والحكمة، وعلمه ما لم يعلم الناطق بلسان الضاد، الذي ُأتي جوامع الكلم وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين أن التصدي لموضوع الحياة العلمية في المجتمع المملوكي من خلال مقامات، السيوطي أمر شاق ليس بالسهل، لان التعامل مع فكرة هذا البحث في النثر أمر يحتاج إلى دقة وتثبـت مـن الحقـائق العلميـة المطروحةِ داخل هذه الأطروحة، ولذلك أتت مجموعة النـصوص المقتبـسة مـن مقامات السيوطي الدالة على الحياة العلمية عند المماليك.

ولقد حاولت الوقوف على أبرز ما في الحياة العليمة في ذلك العصر، ولـذلك من خلال ملاحظات الباحثين، والشواهد النثرية المطابقة لتلك القضايا التي اتـوخى تناولها لتدليل على هذه القضية إذ عدتُ إلى شرح المقامات التي ُأثر عنها تجـارب خاصةٍ في العلم وذلك لصلتهِ القويةَ التي تربط السيوطي بذلك العصر خصوصاً وأنه من ابرز علمائهِ من خلال طرح مواقف عديدة بين العلماء العضو المحرك للعمليـة التعليمية.

والهدف من هذه الدراسة دفع التهمه عن العصر المملـوكي العـصر المـتهم بالانحطاط والتخلف العلمي، إلا أن ما وجدناه من إشارات نثريه أثبتت لنـا عكـس ذلك. إذ تحدثت عن تلك الحياة ووصفها وتفسيرها بكل ما يعتروها مـن ظـروف، وذلك لأهمية المقامات التي حاولت الكشف عن آلية الإبداع العلمي من خلال ما بثه السيوطي في مقاماتهِ من إشارات عن الحياة العلمية، هذا ما دفعنـا لاختيـار هـذه النصوص لمصداقيتها المثبتةِ أكثر من التاريخ أما دوافع اختياري لهذا الموضـوع، وما شدني إليه، يوم ان كنا طلابا في السنة الأولى، كـان أسـتاذنا الكبيـر سـمير الدروبي، يلقي علينا محاضرة موسومة بندوة في النثر العربـي القـديم، وكانـت تختص بدراسة فن المقامات، ومدى قدرتها على إيصال الصورة الواضحة للمجتمع الذي أبدعت فيه

يقول أبن حزم كبير علماء الأندلس في القرن الخامس الهجري،عن الغـرض من التأليف ما يأتي: (هناك أنواع من المؤلفات تبلغ السبعةَ ولا ثامن لها: فهي أمـا

شيء لم يسبق المؤلف استخراجه مستخرجه، وأما الشيء ناقص فيكمله ويتممه، وأما شيء باطل أو خاطئ فيصححه، وأما شيء مستغلق فيشرحه، وأما شـيء مـسهب فيختصره (دون أن يحذف منه شيأ يخل بمقصده وأما شيء متفرق فنجمعه وأمـا شيء منثور فيرتبه)[1] وإذا أردنا أن نطبق ما قاله أبن حزم أجد أن الـسبب الـذي دفعني إلى كتابة هذِهِ الأطروحة هو ما ألصق بهذا العصر بعض أقاويل باطلةٍ خاطئة

وتم اختيار هذا الموضوع موضوع بحث يقدم كمتطلب لمادة النثر وعند قراءة المقامات اكتشفت الكثير من الجواهر التي تُرصع نص المقامات، إن لم تكن المقامةُ الواحدة قطعةُ حلي مرصعةٌ بالجواهر وهذا هو حال المقامات. لان التاريخ لن يكون قادراً على تقديم إجابات كافيةٍ وتامة على كل التساؤلات التي يستطيع الأدب الإجابة عليها وإبراز ما انطوى بين السطور وأخفاه التاريخ

وتقوم هذه الدراسة على تمهيد وأربعة فصول تناول التمهيد الحديث عن عصر السيوطي المليء بالمشاحنات العلمية القائمة على أساس الخصومات بـين العلمـاء، بالإضافة لموقف السيوطي من علوم عصره

الفصل الأول: جاء فيه الحديث عن مكانه العلماء في المجتمع، وما لهم مـن أوصاف تميزهم عن بقيه أفراد المجتمع وخاصةٍ مدعي العلم، منهم بالإضافة إلـى ذكر بعض الألقاب التي يلقب بها رجال العلم في المجتمع حسب مجالاتهم العلمية.

أما الفصل الثاني: فقد خصص للحديث عن الإجازات العلمية، وذكر أشـكالها ،وبعض الأشخاص الذين منحوا هذه الإجازات، وطرق منحها والحصول عليها

وجاء الفصل الثالث بعنوان المناظرات، وقد تحدثتُ فيه عـن مفهومهـا لغـةً واصطلاحاً، ثم تناولت الحـديث عـن عناصـرها وأهـدافها وحكمهـا الـشرعي وموضوعاتها.

الفصل الرابع: تحدث عن حركه التأليف في ذلك العصر، وذلك لان التأليف مظهر مهم من مظاهر الحياة العلمية،إلى جانب الحديث عن كل ما يتخللهـا مـن أنماط وأسباب وعمليه توثيق وسرقات بالإضافة إلى العلوم التي شغلت علماء ذلك العصر.

1إبراهيم، زكريا، ابن حازم الأندلسي، الدار المصرية للتأليف والترجمة،1967، ص 111

ومن أهم المصادر التي عدتُ إليها مقامات السيوطي محور الدراسة، صـبح الأعشى للقلقشندي، والبعض من المعاجم اللغوية (لسان العرب ابن منظور)، (تاج العروس من جواهر القاموس الزبيدي)، ومن الكتب الحديثة (العصر المملوكي في مصر لسعيد عاشور)، (قيام دولة المماليك الأولى لأحمد العبادي

ومن الصعوبات التي واجهتني صعوبات على الصعيد الشخصي، التي قيدت حركة البحث لدي، وآمل أن أكون قد خرجت بنتائج مقنعة فاني قصدت منها إظهار الحقيقة والمعلم الآمن عند ا ، والحمد رب العالمين والـصلاة والـسلام علـى رسول ا .

التمهيد:

المجتمع الذي نحاول في هذه الأطروحة استخرج صورته من خـلال فنـون الأدب، ولا سيما فن المقامات التي تعد ثروة لفظيه بمنظور الناس، إلى جانب كونها فن أدبياً من الفنون التي تعد وسيله لتسريه عن النفس، لتداولها بين الناس، كقصةٍ،أو حكاية تحقق المتعة لمتلقيها، دون النظر إلى قدرتها على تصوير واقع المجتمع الذي ُأبدعت فيه، إذ تأخذنا إلى ذلك الزمان،لتقف بنا على طبيعة الحياة التي عاشها صناع ذاك الزمان، مكمله لنا ما عجز التاريخ عن نقله لنا من دقائق الأمور عن حياه القوم في ذاك المجتمع.

وهذا المجتمع هو المجتمع المملوكي الذي قمنا بدراستهِ من خـلال مقامـات جلال الدين السيوطي(849-911هـ) وقبل البدء بدراسة واقع الحياة العلمية في ذاك العصر،لا بد من إلقاء نظره على الحياة السياسة، التي خضع لها المجتمع وتأثر بها، لان معرفه العامل السياسي تساعد على معرفه الظواهر الاجتماعية، وتفسيرها.

بعد أن افلت شمس الدولة الأيوبية عام 648ه قامت دوله المماليك منذُ لحظـه تسلم شجره الدر الحكم واتفقوا على ولايتها لحسن سيرتها وغزير عقلهـا وجـوده تدبيرها»[1]، وذلك بعد رحيل زوجها الصالح نجم الدين، ومقتل ابنهِ تـوران شـاه، على يد جماعه من المماليك بعد موقعه الناصرة، وتزوجت شجره الدر مـن عـز الدين أيبك، أحد أمراء المماليك، وذلك لما تقتضيه قوانين استلام الحكـم، وبـذلك تكون شجره الدر هي مؤسسة دوله المماليك البحرية. باستلامها السلطة عام 648ه، وانتهت بموت السلطان زين الدين حاجي عام واستمر عصر دولة المماليك الأولـى ما يقارب القرن ونصف القرن، وبلغ عدد سلاطين دولة المماليك البحريـة خمـسه وعشرون سلطاناً عام 784هـ، تفاوتت فتره حكمهم من سلطان إلى أخر، منهم من

---

1 بردي ، ابن تغري (ت 874): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة،1963، ص 3916.

حكم بضعه أيام، وآخرون بضعه أشهر ومنهم من تسلم الحكم لعده سنوات، ومـنهم من تسلم الحكم صبياً أو طفلاً لم يبلغ الحلم، وتحت إمرتهم أتابك ونواب سلاطين. [1]

ومن ابرز السلاطين الذين كان لهم أثراً كبيراً في عهد دولة المماليك البحرية السلطان قطز، الذي تسلم الحكم عاماً واحداً، من سنه 657هـ-658هـ، وقُتل في هـذا العام بعد موقعه عين جالوت، ضد المغول، وذلـك فـي (يـوم الجمعـة الخـامس والعشرين من شهر رمضان).[2] كذلك الظاهر بيبرس الذي تسلم السلطة فـي عـام 658هـ- 676هـ، والمنصور قلاوون الذي حكم بين عامي 678هـ-689هـ، والأشـراف خليل الذي تولى الحكم من 689هـ-، وقتل في 693هـ، وهؤلاء من حكموا فتره أطول تخللها "هزيمة التتار على يد بيبرس وما وراء الفرات والاستيلاء على عكـا سـنه 690هـ على يد الأشراف خليل[3] والدولة المملوكية الثانية، دولة المماليك البرجيـة، سموا بذلك لأنهم كانوا مقيمين في أبراج (الجراكسة)، وهم حراس السلطان قلاوون، وبدأت الدولة عام 748هـ بسلطة الظاهر سيف الدين بن برقوق، وانتهت عـم 923هـ، بانتهاء حكم السلطان طومان باي، باستيلاء العثمانيين على سوريا في عـام 922هـ، ومصر عام 923هـ، وعدد سلاطينهم ثلاثة وعشرون سلطان [4]

واللافت للنظر، أن الدولة الأولى، المسماة بالمماليك البحرية، كانت فتره غنية بالإحداث المتمثلة في الصراع مع الفرنجة والمغول، وجهود مبذولـة فـي أنـشاء المدارس والمكتبات مع وجود المفارقات الاجتماعية والدينية والـسياسية، كالتمـسك

---

1 باشا، عمر: تاريخ الأدب العربي (العصر المملوكي)، دار الفكر المعاصر – بيروت ط1، 1989، ص25

2 البرمكي، ابن خلكان (681): وفيات الأعيان وأبناء أهل الزمان، تحقيـق إحـسان عبـاس، 1971، ص2972.

3 جامعه القدس المفتوحة، منشورات: تاريخ الأدب العربي، 1995م، ص 415

4 باشا، تاريخ الأدب، ص 25، 26

بالدين والزهد والإسراف واللهو والغرق في ملذات الحياة، ووجود الطبقية بين الناس من بذخ وفقر شديد واعتداء على الأموال والأنفس والحرمات. [1]

والعلم عماد الحضارات وأقوى دعائمها، لما له من علاقـةٍ وثيقـة بـأحوال الدولة وسياستها، فإذا نظرنا في كتب العرب القدماء نجدها سجلات أثبتت فيها مآثر تلك الأمم (لان المصدر الوحيد لتاريخ الإسلامي والمسلمين والآداب الإسـلامية)[2] لذلك فان الدولة لها دور هام في رفع سويه التعليم في زمانها، (وكان السلطان يتدخل أحياناً للحض على العلم وخاصة الديني كالقرآن والحديث) [3]

(وقد شاعت تهمه باطله بين الباحثين وسمت هذا العصر بأنه عصر جمـود، وركود في الحياة العقلية والأدبية، ولكن النظرة المصنفة إلى نتـاج هـذا العـصر، والفحص لأراء علمائهِ لجعلنا ننفي هذه المقولة الباطلة عن هذا العصر الذي عـاش فيه ابن خلدون وابن حجر العسقلاني والعيني والمقريزي، وغيـرهم مـن العلمـاء الإعلام) [4]

وبناءاً على ما سبق، سوف نتناول موقف السيوطي من علوم عصره، وما كان له من أثر واضح في إثراء الحصيلة العلمية في ذلك الوقت.

والفترة الهامة بالنسبة لهذه الأطروحة، هي الفترة التي عاش فيها جلال الـدين السيوطي، الفترة الواقعة بين النصف الثاني من القرن التاسع الهجري وبداية القـرن العاشر الهجري. وفي هذه الفترة تسلم سلطنه الدولة المملوكية ثلاثة عشر سـلطاناً، منهم الملك المظفر جقمق، والمؤيد شيخ، وأحمد المؤيد بن الاشرف إينال العلائـي، وقايتباي العلائي، الملقب بالظاهر تمربغا، وغيرهم من السلاطين الذين يتنـازعون على سلطه الحكم متفاوتين في مده الحكم، من عدت سنوات إلى شهر أو اقل.

1عباس، أحسان: تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك، منشورات لجنه التاريخ بـلاد الـشام، الجامعة الاردنيه- جامعة اليرموك – عمان، 1998، ص142-160

2 زيدان، جرجي: تاريخ التمدن الإسلامي، دار مكتبه الحياة – بيروت، م2، ص 172.

3 سلام، زغلول: الأدب في العصر المملوكي، منشات المعارف _ بيروت، ج 4 /178

4 السيوطي: جلال الدين(ت911): شرح المقامات جلال الـدين الـسيوطي، تحقيـق سـمير الدروبي، مؤسسه الرسالة_بيروت 1989، ج1، ص27.

وهذه الفترة التي قضى فيه السيوطي اثنين وخمسين سنة من حياتـه، وهـي الفترة الممتدة من (849_901ه)، معاصراً لسلاطين قل الصراع في عهدهم. وكانت شخصيه السيوطي العالم(المحافظ على كرامته والمترفع عن السعي وراء الحكـام، غير المتهافت على ولائم السلاطين، المتعالي عليهم النافر منهم، قد جعلته مثلاً رفيعاً لما ينبغي أن يكون عليه العالم المسلم سلوكاً وترفعاً في كل زمان ومكان، ذلـك لان الصراع بين العلماء والسلاطين دائم موصول ما لم يكن السلطان عـادلاً مـستنيراً، وما لم يكن العلماء على قدر من السمو بأنفسهم والحفاظ على مكانتهم. [1]

ومما لا شك فيه أن موقفه من حكام عصره، كان الشرارة المشتعلة في كثره تأليفه للكتب والرسائل ذات الصلة بالخلفاء والسلاطين والأمراء، ولتنويه لمواقفه مع الحكام والسلاطين، لابد من الإشارة إلى موقفه من علامتهِ بسلاطين المماليك الـذين عاصرهم وبخاصة الاشرف سيف الدين قايتباي (حكم872_901ه) قرابـة ثلاثـين عاماً، وهي فتره نضوج السيوطي وتبلور نزعاتهِ الفكرية ومواقفه السياسية.([2]) ومن المواقف التي توضح علاقة السيوطي بالسلاطين هي علاقة السيوطي بقايتباي، الذي طلب من السيوطي الطلوع إليه أول كل شهر مع القضاة، لكن عدم تردد الـسيوطي على السلاطين أوضح عن مدى استقامة السيوطي وسيرة على نهج السلف الذي لـم يتردد على الأمراء الآمرات يسيره، إلا إن السيوطي لم يتردد إلى السلطان إلا حين وقع عن فرسه عام 861ه، وفي نفس العام أرسل إليه السلطان وعينـه شـيخاً فـي الخانقاة البيبرسية [3]

ولقد تعرض السيوطي للموت المحقق عندما أهدر السلطان طومان باي دمـه، لان أعداء السيوطي أبلغوه أنه دائم الحط عليه واستغل السيوطي موهبتـه الأدبيـة في تسجيل ما حدث في صرهِ، إذ يعد السيوطي ظاهره علميه متميزة في عـصره،

1 الشكعه، مصطفى: جلال الدين السيوطي، الدار المصرية اللبنانية _ القـاهرة ، 1994م، ص ب

2 انظر الدروبي، سمير: ظاهره التعدد والكثرة في مؤلفات السيوطي، وزارة الثقافة_ عمـان، 2005 ، ص89

3 انظر الدروبي، ظاهرة التعدد والكثرة، ص 89، 90.

ومن أعلام أعلام القرن التاسع والعاشر الهجريين، إذ تعرض للعدائية من خـصومهِ، أمثال السخاوي، ولهذه العدائية اثٌر بارز على السيوطي والسخاوي في مجال التأليف والرد على بعضهم البعض، كقضية الحديث النبوي سبعه يظلهم ا في ضلهِ.

واتهام السخاوي للسيوطي بسرقة الزيادة على هذا الحديث، وترجم الـسيوطي لنفسهِ، عما رزق من العلم، واعتبار هذا الأمر مفاخره من قبل السيوطي، والسيوطي لم يخطئ في ترجمتهِ لنفسهِ كغيره من العلماء؛ أمثال لسان الدين بن الخطيـب فـي (الإحاطة) وأبن خلدون في(تاريخهِ)، وياقوت الرومي في (معجم الأدباء)، والمتتبع لسيرة السيوطي يرى مدى اهتمامه بالكتب والعلم الذي درسه على يد مشايخهِ فضلاً عما كان يقرأه بنفسهِ لنفسهِ، ومن جانب أخر ملازمة الـسيوطي لمكتبـة محمـود الاستادار التي عرفت بالمكتبة المحمودية وكان بها أربعة الألف مجلد وعمل علـى فهرستها، أما من ناحية الرحلة، وهي أمر ضروري لإكمال تحـصيل العلـم فـأن السيوطي لم يكتفِ بالرحلات الداخلية في هذا المجال، ونتيجةً لتعـرض الـسيوطي للخصومات والهجمات، قرر السيوطي الاعتذار عن الفتيا فـي أكثـر مـن مقامـة (المقامة المزهرية المسمات بالجنح إلى الـصلح، والاستنـصار بالواحـد القهـار، والمقامة اللؤلؤية)

يقول السيوطي في المقامة المزهرية: أنها تصدى لإفتاء سبع عشرة سنة، وبقى في الإفتاء والتدريس إلى أن بلغ من العمر أربعين سنه، وبعد ذلك أنسحب من الحياة العامة وترك التدريس والإفتاء الداخلية في هذا المجال، ونتيجةً لتعرض الـسيوطي للخصومات والهجمات قرر السيوطي الاعتزال عن الفتيا في أكثر من مقامة (المقامة المزهرية المسمات بالجنح إلى الصلح، والاستنصار بالواحد القهار والمقامة اللؤلؤية) يقول السيوطي في المقامة المزهرية: أنه تصدى لإفتاء سبع عشرة سنة، وبقى فـي الإفتاء والتدريس إلى أن بلغ من العمر أربعين سنه، وبعد ذلك أنسحب مـن الحيـاة العامة وترك التدريس والإفتاء.

ولفت السيوطي الأنظار إلى ما يعانيه المفتي حين يتصدى للإفتاء وهـذا مـا أوضحه في مقامة الاستنصار بالواحد القهار.

وأما المقامة اللؤلؤية يشير فيها السيوطي إلى انسحابهِ من التدريس والفتيـا شـرحاً وافياً ويقول (.... ليس هذا زمان الصبر، الصابر فيه كقابض على الجمر، رأينا فيه ما أنذر بهِ الرسول وصحت بهِ الأحاديث والنقول) [1] ويمضي السيوطي في تقريـر حال زمانه وتسجيل سوءات عصره، مبرراً القرار الـذي اتخـذه بالامتنـاع عـن التدريس والفتيا في مقامتهِ اللؤلؤية، ويتضح لنا مـن خـلال هـذه المقامـة كثـرة الإستفسار عن سبب الامتناع لدى السيوطي عن الإفتاء والتـدريس، حيـث عاتـب السيوطي من يعاديه فيما أصدره من علوم، وخاصة الإفتاء، وبينـت أيـضاً سـبب المعادة على الرغم من التزامهِ الطرائق الصائبة وفي هذا المجال، وأشار الـسيوطي أيضاً إلى وجود أعذار قدمها عند اعتذاره عن الفتيا والتدريس وذلك (الشح المطاع، ودنيا مؤثره وهوى له ذو أتباع، وإعجاب كذي رأي برأيهِ وذلك عين الابتداع، وقد مرجت الأمانات وكثر القائلون بالزور والشهود .... وخون الأمين .... وتكلم الرجل التافه في أمر العام،وتعلم المتعلم لغير العمل) [2]، ويشير السيوطي في حال ظهـور هذه الأسباب من شُح الحياة ومطامعها ومؤثراتها ومغيراتهـا، إلـى تـرك الفتيـا والتدريس لكي لا يختلط الحابل بالنابل .

وقسم السيوطي الذين تلقوا العلم على يده ثلاث طبقات، الأولى من اعترفـت بجهود السيوطي (كانت خيراً طرفاً، دينـاً وفـضلاً وصـدقاً وعزمـاً، فحياهـا ا وبياها)[3].

الطبقة الثانية: وهي التي لا تعترف بفضلهِ عليها (تعرف وتنكر، تذم وتشكر، وهذه يحمل أمرها ويروج سعرها ويخف أمرها) [4].

الطبقة الثالثة: هي الأشد عدائية وطغياناً، (ا أكبر ما أكثر شـرها، وأكبـر شرها وواشد امرها وأنكر أمرها وأعظم إمرها أقوى فجورها، ...وبهتانها وزورها

1 السيوطي ، شرح المقامات: ج2، ص 998.

2 السيوطي، شرح المقامات: ج2، ص 999

3 السيوطي، شرح المقامات: ج 2، ص 1001

4 السيوطي، شرح المقامات: ج 2، ص 1001ـ 1002

... ليست للعلم ولا للحلم بأهل) [1]، ويتوقع ظهور طبقة رابعة أكثر فجورا وبأسـاً وعدائية وقد يكون هذا الكبر دواعي ترك الإفتاء والتدريس، (أن يأتي بعـد هـؤلاء حثالةُ الرجال، وفِراخُ يأجوج ومأجوج والدجال) [2] ويشير أيضاً إلى قدرتـهِ علـى تمييز الأصدقاء، فمنهم من يكون ذا بهرجةٍ دون قيمة لا خير فيه، ومنهم من يـشك فيه لا يعرف أهو معك أم عليك ومنهم الصاحب الذي لا يمكـن أن تتخلـى عنـه ويصف السيوطي الفُتيا التي(طبقت الأرض شرقاً وغرباً، وعجماً وغرباً)[3]، واصفاً هذه الفُتيا بأنها، تفتح كل مقفل، وتوضح كل مشكل، وتزيل كل مجهلة.

أساوبه في الفُتيا:

الغوص في العلوم والبحث عن القضايا الهامة، والاطلاع على نقول الأئمـة الكثير وإظهار مالم يعرفه الناس وإزالة الإبهام واستخراجها (أغوص البحار علـى الجواهِر، وأفحص عن نُقول الأئمةِ الجماهِير، ولتتبَع ما خَفِي على الناسِ، وأزيلُ كُلّ إيهامٍ وإلباس واحشد النقُول، وأحشُر كل قولِ، واصدع بالحق وأصولُ، وأفوقُ الأسنةَ والنصول..) [4] واستمر بالحديث عن نفسهِ، وقدرته على مواجهة المشكلات، وفساد مدعي العلم، وفساد علومهم، وصفاتهم ومن هذه الصفات، رفضهِ كل ما هو جديـد من العلوم بحجة عدم سماعهِ سابقاً، وفساد علوم الشريعة، واهتمـامهم بالمظـاهر، وفساد أنفسهم، وعدم القدرة على تحقيق مطالبهم، وعدم الخوض في مسائل العلـوم، وأشار إلى وجود علماء المظاهر، الذين يتقربون للأمراء وانصرف جل اهتمـامهم إلى المظاهر، (..... احدهم أن طَولَ كُمه وكبر العِمةَ وسرح لحيتَه وحسن هيئتَه، ثم حفَظَ دستَ فجورٍ ليكابر وتردد إلى الأمراءِ والأكبارِ) [5] وتصديهم لتدريس والفُتيـا وهم براءةُ من ذلك جزاء وتوبيخ للجهلة، الهجر والابتعاد عنهم ومحوا أسمائهم مـن

---

1 السيوطي، شرح المقامات: ج 2، ص 1002

2 السيوطي، شرح المقامات: ج2، ص 1002

3 السيوطي، المقامات: ج 2، ص 1003

4 السيوطي، المقامات: ج 2 ، ص1003 ـ 1004

5 السيوطي، شرح المقامات: ج 2، ص، 1012

سجلات العلماء، وإبعادهم عن الحصول على ما يريدون إذا سألوا وأرادوا الاجابـه وهذا النوع من العقاب الذي استخدم معهم كما استخدم معهم العلماء.

وفي حال وقوع مشاكل، تُحضر هذه المشاكل، وتوجه إلى من هو محسن لها، ولديهِ ميولٌ إلى حلها، وعمل على أرجاع الإثم على من سمح لهؤلاء الجهلة بـأن يخوضوا في مسائل العلم ويجيبون عليها، (فأثم تَخلفِي عن الجوابِ وتَركي لإبانـةِ الصوابِ على من فَتح هذا الباب، وكان ذلك أحد الأسبابِ) [1]

وفي الختام أشار إلى وعي المجتمع، وتحضره وقيامهِ من تحت نيـر الجهـل السائد في ذلك الوقت، وأخذ كل ذي حق حقه، (قد تدبرتُ المصالح، واقتـديتُ فـي الترك والعزولة بالسلفِ الصالح، وانتظرتُ رحمة ا ِ وهي قَريب، وعـدلتُ عـن طريقةِ من هو في شك من ذلك مريب، وأضربتُ عن أسلوب لا أرضاه وأن قلّ في ذلك الضريب، وكررتُ على سمعي ذكر حبيبٍ مِن حديث: (كُن في الـدنيا كأنّـك غَريب) [2] وتحدث عن صحوت المجتمع وقيامهِ من تحت نير الجهل الشائع في ذلك الوقت وأخذ كل ذي حقٍ حقهُ ودعاً إلى صبرِ العالم (وأتوا مالا عـين رأت ولا أُذن سمِعتْ ولا خَطَر على قلبِ بشرٍ بالإمرار) [3]

---

1 السيوطي، المقامات: ج2، 1014.

2 السيوطي، المقامات: ج 2، ص 41039

3 السيوطي، المقامات: ج 2، ص 1041

الفصل الأول
العلماء

1.1 رواد الحركة العلمية

تعد بغداد مركز الحضارة الإسلامية منذ بدايات القـرن الثـاني الهجـري، فالخلفاء العباسيين اعتنوا بالجانب الفكري كعنايتهم بالجانب السياسي، ونتيجة لهـذه العناية، وجِد في نهاية النصف الأول من القرن السابع الهجري تراثاً فكرياً لأفكارٍ لا تكاد أي حضارة أن تضاهيه، إلا أنه تعرض لهجمة بربرية، كادت تقضي عليه، لولا ما قام بهِ العلماء من عنايةٍ في الأمصار الأخرى مثل مصر وبلاد الشام والحجاز؛ إذ يعود لهذه الأمصار الفضل في إحياء هذا التراث والإبداع فيه؛ إذ انتشرت المراكـز العلمية في كافة أرجاء الشام ومصر، وساعدت على نبوغ كثير من العلمـاء الـذين وجدوا التشجيع من السلاطين والأمراء، وعامة الناس، مما ساعد على النهوض بهذا التراث وتوثيقه، والعمل بكل الطرق من أجل صياغته وتوثيقه.

وهذا يعد انعكاساً لمجتمعٍ اتصف فيه العلماء بـالعلم والإبـداع، والأخـلاق الرفيعة، فكانوا من أبرز ما قدمت الحضارة العربية الإسلامية للعالـم فـي مختلـف العصور؛ إذ شكل العلماء جزءاً هاماً في المجتمع الإسـلامي المثقـف فـي الأدب والشريعة والعقائد، ومنهم قضاة ومدرسين وحفظةٍ للقرآن ورواة للحـديث....الـخ، وتمثلت واجباتهم بإصلاح ما فسد في المجتمع، من خلال التوجيهات، والفتاوي التي يصدرونها، إلا أن علاقة العلماء بالطبقة الحاكمة وثيقة إلى حد ما، فاشتهر المظفـر قطز بحبه للعلماء[1].

ويعد الظاهر بيبرس أكثر السلاطين اهتماماً بالعلماء، وإعطائهم المكانة التي يستحقونها، فَأَكْثَر من بناء المؤسسات العلمية، وأخذ على العلماء العهـد، وتبليـغ

---

1 أنظر العيني، بدر الدين : السيف المهند في سيرة الملك الؤيد، تحقيـق فهـيم شـلتوت، دار الكتاب العربي- القاهرة، 1967م، ص 48

أحكام الدين ومناصحة المسلمين، وتعظيم حرماتهِ، وإعظّام شعائر الـدين وتكـريم العلماء وأتباعِهم [1]

وتعد منازعة سلطان تونس ومصر على ابن خلدون، من دلائل مكانة العلمـاء في العصر المملوكي وهذا ما ذكره ابن خلدون (فأبر مقامي وآنس غربتي، ووفـر الجراية من صدقاتهِ، شأنه مع أهل العلم، وانتظرت لحاق أهلي، وولدي من تـونس، وقد صدهم السلطان عن السفر، أغتباطاً بعودي عليه، فطلبتُ من السلطان صـاحب مصر الشفاعة إليه، لتخليهِ سبيلهم ..... فشفع لأهلهِ وولده"[2]، "إلا أن بعض سلاطين المماليك احتفضوا بالسلطة المطلقة، ولا معقب لآرائهم وأحكـامهم، وإن شـاوروا أحياناً في بعض الأمور جماعة الفقهاء والعلماء، إلا أنهم احتفظوا لأنفسهم بـسلطة التصرف، حتى خالفوا رأي مجلس العلماء وأهل الرأي"[3].

العالم في المقامات: حدثنا السيوطي عن مكانة العـالم مـن خـلال علومـهِ وإنتاجاتهِ العلمية، ودوره البارز في المجتمع المملوكي، وماله من إصـلاحات فـي مجتمعه، من خلال أعوانه العلماء والتلاميذ، "فل وضع كل عامي في الأرض فـي كفةٍ، ووزنوا بفقيهٍ واحد لكانوا هم في جانب الخفةِ"[4] ولكن هل المقصود هنا كل من حملَ لقب عالم بعالم، إذ لوحظ في المجتمع المملوكي إنتشار الكثير مـن العلمـاء، الذين امتهنوا العلم ولكن ليس كل عالم بعالم ومن هذا المنطلق، علينا التمييـز بـين العلماء ومدعي العلم.

---

1 السيوطي، جلال الدين (ت 911): حسف المحاضرة في أخبار مـصر والقـاهرة، تحقيـق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتـب العربيـة، القـاهرة ط 1، 1967، ج2 ص 103_104.

2 ابن خلدون، عبد الرحمن: تاريخ ابن خلدون مع المقدمة، ضبط وحواشـي خليـل شـحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر- بيروت ، ط2، 1998م ،ج7، ص 649 ـ 652.

3 سلام: الأدب في العصر المملوكي، ط.ت. ج1 ، ص 63

4 السيوطي، جلال الدين السيوطي (ت 911) : شرح مقامات جلال الدين السيوطي، تحقيـق سمير الدروبي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط1، 1989م، ج1، ص228. وانظـر ابـن جماعة، محمد بن ابراهيم: تذكرة السامع والمتكلم، جمعية دار المعارف العثمانية، 1353، د.ط، ص 18 ـ 28.

وهذا يشير إلى وجود صنفين من العلماء؛ الأول اتخذ العلـم فـي سـبي ا ، والثاني اتخذه ليحصل على المال، وإشارة ذلك في المقامات، مقامه طرز العمامة في التفرقةِ بين المقامة والقمامة، التي رد فيها السيوطي على ابن الكركي، (وقوالك: إنك كنتَ منذُ نشأت محصلاً للذهب، صحيح لا يغفل لقد كنت تحصله في كل باب مـن الأعلى ومن الأسفل، وأما أنا ما طرقتُ باب أحد، ولم يكن لي من دون ا ملتحد[1]

ذكرت لنا كتب التاريخ والأدب صفات العلماء. التي يمتازون بها عن غيرهم، لكي تمكنهم من التصدي لتعليم، وتكمن هذه الميزات في كونها أخلاقيـة وعلميـة، والأخلاقية منها تمثلت بالخوف من ا عز وجل، والقناعة بما قسم له، والبعد عـن المناصب الدنوية، وصيانة العلم، الحفاظ على القيام بـشعائر الإسـلام، وظـواهر الأحكام؛ كإقامة الصلاة وإفشاء السلام للخواص والعوام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتحلي بمكارم الأخلاق من بشاشة وجه، وحلم وكظم غـيظ، وكـف أذى، وتواضع، والسعي في قضاء الحاجات، والطُهر من الأخلاق الرديئة ؛كالغـل والحسد والغضب والبخل والرياء والإعجاب والسمعة والمباهاة، وأن لا يجعل العلم جسر يعبر من خلاله إلى أغراض دنيوية من جاه ومال وسـمعة وشـهرة، وأن لا يستنكف عن طلب العلم ممن هو دونه منصباً أو نسباً أو سناً، وإخلاص النيةِ عز وجل في طلب العلم، وهذه الصفات هي المؤهلات الأخلاقية لدى العلم [2] أما العلمية تأتي في الدرجة الثانية من الأخلاقية، لأن الأخلاق وحسن الأخلاق أساس كل شيء.

فعلى العالم أن يمتلك قدراً كبيراً من العلم، ويكون ملماً بعدة علوم كعلوم اللغـة والأدب، والعلوم الشرعية وسير السالفين، والى جانب هذه المعرفـة المهـارة فـي التصنيف والتأليف، والجمع لما له من فوائد "فالتصنيف يفضي الى كثـرة التفتـيش والتحقيق والمطالعة والمراجعة، والاطلاع على مختلف كلام الأئمة ومتفقهِ، واضحة

1 السيوطي، شرح المقامات، ج2، ص768.

2 أنظر النووي، زكريا بن يحيى: آدب العالم والمتعلم، مكتبة الصحابة ـ طنطـا، ط1، 1987، ص 29 ـ 31

ومشكلهِ، وصحيحهِ من ضعيفه، وجزله من ركيكهِ، وبهِ يتـصف المحقـق بـصفة المجتهد" [1].

وعليه أن "يحسن إلقاء الدرس وتفهيمه للمحاضرين" [2]، وذلك أن "الحذق فـي العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله استنباط فروعه من أصوله، وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق في ذلك الفن حاصلاً ... ولكل إمام من المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به"[3] إذ استخدموا طرائق تدريس وأساليب متطورة فذكر كل من إبن ماجه والنووي بأن المدرس يحسن اختيار المكان الذي يجلس فيه لإلقاء الدرس فيجلس فـي مكـان بارز للجميع، ومعتدل الصوت، لائق المظهر، وأن لا يكون محتاجاً الى شيء فـي نفسهِ عند إلقائه الدرس، أي أن ينتهي من الدرس في حال جوعهِ أو عطشهِ أو همهِ أو غضبهِ أو نعاسهِ أو قلقهِ أو برده أو حرة[4].

وصفات العالم في المقامات كما أشار لها السيوطي كثيرة، تمثلت هذه الصفات بـ وقد ولي مثل وظيفتك من هو أغزر منك علماً، وأثقب فهمـاً وأعظـم تقـوى، وأحسن نجوى ورجوى، وأزكى نسباً وأعلى حسباً، فما منهم أحد سار مع الناس هذا السير، ولا سامهم بذل أو خسف أو ضيم أو خير، وما منهم احد إلا وألسنه الناس له بالدعاء منطلقة، وقلوبهم على محبتهِ مؤتلفة متفقة، وذلك مصداق الحـديث والأثـر المشهورين: من لانت كلمته وجبت محبته والكلمة الطيبةُ صدقه»[5].

لكن هذه العناية في إختيار المعلمين على أسس قوية، لم تمنع بعض الأشخاص مدعي العلم من الوصول الى حرم العلم، واختراق أسواره، لتحقيق ذاتية أقرب إلـى

1النووي: آداب العالم والمتعلم، ص 32، 33.

2 السبكي، عبد الوهاب بن علي: معيد النعم ومبيد النقم، مؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت، ط1، 1986، ص 83

3 ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ص 250 1998

4 ابن جماعه: تذكرة السامع والمتكلم ص 30ـ 33 ،39. النووي: آدب العالم والمتكلم، ص 40، 41 .

5 السيوطي، شرح المقامات، ص405.

المادية، هذا ما ذكرته كتب التاريخ، والأدب، وما أكدته مقامات جلال الدين السيوطي، إذ أشار إلى العديد من صفات العلماء كعدم الخوض بشيء لا يعلمه "قتل أرضاً عالمها" [1]، ودعوة إلى الصدق والقرب من الواقع والثبات عليه وعدم الافتراء على الآخرين وهذا ما خصه السيوطي بالعالم أي لا ينطق بالرجل إلا بما فيه " ما دهاك يا غُلام ....، زعمت أني في مقامتي جئتُ عليك بالإفتراء وآتيتُ بما يكذبني في الورى، ومعاذ ا أن يكون لي ذلك خُلُقاً، أو أن أضع على أحدٍ من الخلق شيئاً مختلفا وأقول كما قال الزهري للوليد: لو نادي منادٍ من السماء أن ا أحل الكذب ما كذبتُ ولا تلفظت بكلمةٍ خلاف الواقع ولا كتبتُ"[2]

وأكد أيضاً على سعة الحفظ والاطلاع وخاصةً في العلوم الفقهية وغيرها من العلوم "ولو أن لهذا الرجل حفظاً وسعة اطلاع عن طريق السنة لوقف على الولاية ..." [3]، وركز أيضاً على حفظ اللسان والحلم " أما علم أن الجهلَ في الكتاب والسنةِ هو ضد حِفظِ اللّسان والحِلم. أنت يا شيخُ رجلٌ عالِم ولكن أدبك العِلم"[4] وهذه دعوه أيضاً إلى الصبر وتحلي بهِ ومخافة ا "نحن مأمورون بالصبر والإحتساب، وتأخير المطالبة إلى يوم الحساب." [5].

ولمدعي العلم أوصاف تميزوا بها، جاءت على النقيض من صفات العلماء، وهو ما أشار إليه السبكي بقولهِ " ومن أقبح المنكرات مدرس يحفظ سطرين أو ثلاثة من كتاب، ويجلس يلقيها ....ثم، فهذا إن كان لا يقدر الا على هذا القدر؛ فهو غير صالح للتدريس، ولا يحل له تناول معلومة"[6] ولقد نقلت المصادر أمثلة على مثل هذه الوقائع، كواقعة عمر بن أبي الحرام بن عبد الرحمن بن يونس زين الدين

---

1 السيوطي، شرح المقامات، ص 665. هذا مثل يراد بهِ أن الرجل العالم بالارض يذللها ويغلبها بحلمه ويضرب بمدح العلم

2 السيوطي، شرح المقامات ،ص667

3 السيوطي، شرح المقامات، ص 942.

4 السيوطي، شرح المقامات، ص 1048.

5 السيوطي، شرح المقامات، ص 230، 231.

6 السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ص 83، 84

الدمشقي (ت 728)، حيث ألقى درس الحديث بالقبة المنصورية، وصـار صـغار الطلبة ينقلون وقائعه للعلماء، وعندما عين ناظر الوقف الشيخ أحمـد بـن محمـد العسجدي (ت758هـ) مدرساً للحديث في المنصورية، اعترض الطلاب على ذلك، وقالوا " وليت علينا من لا يصلح، ونحن لا نريد إلا من ننتفع بعلمه"[1]

وعلى المدعي العلم أن يقحم نفسه بما ليس في استطاعته الرد عليـه، حتـى يحفظ كرامته وماء وجهه "لو اجتمع كل عدو لك لم يقدروا ان يجروا إليك مثل الذي جررته إلى نفسك من الضرر، وأوقدته عليك من الشرر، يوم لا مفر ولا ورر فقـد نص العلماء وأهل الإمامةِ على أن: من أقر كذباً على رسول ا صـلى ا عليـه وسلم كان النبي خصمه يوم القيامة، يكفيك العقوبةِ هذا القدر وأن تحشر في زمـرة الكذابين "[2].

وفي المقامات فقد بث السيوطي في مواضع كثيرة منها صفات مـدعي العلـم التي جاءت منافية لصفات العلماء ومن هذه الإشارات التي أشارت إلى انتشار مدعي العلم العائد إلى عدة أسباب، منها الرغبة في الشهرة وجمع المال، وانتشار الجهـل بين العامة، وأخذهم كل ما يقال لهم، وعدم وجود رقابة دقيقة تميز العالم الحق مـن مدعي العلم، وضعف جاهزية التعليم في ذلك العصر بسبب الانشغال بأمور أخـرى سياسية واقتصاديه وغيرها، مما دعا كل من وجد في نفسهِ قدرة على إثبات أنه عالم خاض في هذا المجال لأن هذا المجتمع يأخذ كل ما يقال، خصوصاً إذا كان صادراً ممن يحمل لقب عالم، ومن رعاع اتخذوا دين ا هزأةً ولعباً، وعلوم الشريعة هرءاً وهواء ولغياً... لا يهتدون طريقاً، ولا يرتدون وريقاً ولا يقتدون فريقاً رفيقاً، سـاء أدبهم، فلم ينجح طلبهم، ولا أدرك أربهم، ولا خُمِد مذهبهم، كمثل الحميـر الظالـةِ، والشريد الفالة، ولا يصلحون لخطاب ولا يفلحون في سؤال فضلاً عن جواب، من ذا الذي لمثل هؤلاء يتراءى؟! وينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ويرى انه يضع العلم

---

1 ابن جماعه، تذكرة السامع والمتكلم، ص 30،33، 39. النووي، آداب السامع والمتكلم، ص40، 41

2 السيوطي، شرح المقامات، ص 417.

حيثُ لا يصلح له وعاء، ويناهز من أضحى بـزةُ سـرِقةً ونـصره ُعـواء وإن استطال»[1]

ولكن المعضلة الأخرى تكمن في فخر مدعي العلم بشعوره بأنه مطلوب مـن الكل، ولكنه لا يعلم أن وراء هذا التقرب منفعة مرجوة " إنك صرتَ بحيثُ أن الناس يترددون إلى بابك، ويلتاذون بجانبك، فما ترددوا إليك لعلم أو فُتيا، بل لقضاء مآربهم في الدنيا، فمنهم من يخشى أذاك، ومنهم من يتوفى بذَاك، ومنهم مـن يتـوهم أنـك تساعده إذا عرضت له مهمةٌ، أو ألمت به ملمةٌ، وكان بعض من يعولُ عليهِ، يـشبه مثلَك بالخلاء، يتردد لقضاء الحاجةِ إليهِ"[2]، ولقد عمل السيوطي على عقد مقارنة بـين العالم ومدعي العلم بقوله: "إنما لم تكن لك فتاوى لأن الناس ما استفتوك" فيكفيك، أعظـم شاهدٍ على صدقي هذا الذي خرج من فيك، فلو عِلم الناس أن عندك عِلماً لاستفتوك، ولـو هربت منهم إلى ما وراء النهر كما فعل غيرك لأتوك، ولألحوا عليك فـي القيـام بهـذه الحقوق ولدخلوا وراءك في الجحور والـشقوق، ولحرمـوك الأكـل والـشرب والنـوم ولحاولوك العام بعد العام، والشهر بعد الشهر، واليوم بعد اليوم، إلا ترى إلى شيخ الشيوخ صلاح الدين كيف تزدحم عليه الأنام، وتسام إليه الفتاوى والأحكام، وحرم لاشتعاله بـذلك القيلولةَ والمنام"[3]

ومن الألقاب التي تخص العملية التعليمية:

المتحدث: وهو من يتصدى لحديث النبي ـ صلى ا عليه وسلم ـ بالروايـة والدراية، والعلم بأسماء الرجال وطرق الأحاديث والمعرفة بالأسانيد) [4].

---

1 السيوطي، شرح المقامات، ص 1011-1013.

2 السيوطي، شرح المقامات، ص 772 .

3 السيوطي، شرح المقامات، ص 808، 809. صلاح الدين هو محمد بن يوسف الحنفي المعروف بالشيخ صلاح الدين الطرابلسي، كان عالماً فاضلاً مفتياً بارعاً في مذهبه، ولي مشيخة المدرسة الاشرفية بدلاً من برهان الكركي توفي(899هـ). أنظر ابن اياس، محمد بن أحمد (ت930): بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ط2، دار احياء التراث ـ القاهرة ، 1963،ج3، ص 301 ، 302

4 القلقشندي، ابو العباس احمد بن علي (ت 821) : صبح الأعشى في صـناعة الإنـشاء ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط 1987م ،ج 5 ، ص 43

الشيخ: لقب يقترن بأسماء العلماء وهو غالباً ما يلازم لهم، ويلقب بهِ أهل العلن توقيراً لهم [1].

المعيد: وهو اقل رتبه من المدرس الرئيس وتنحصر مهمته في إعـادة إلقـاء الدرس بعد إنتهاء المدرس منه ليفهمه الطلاب[2] .

المدرس: وهو لقب علمي يوازي لقب أستاذ في عصرنا الحالي[3].

المقرىء: ومهمته قراءة القرآن الكريم[4].

ونلحظ مما سبق أن العلماء درجات متفاوتون في الصفات منهم العالم الحـق ومنهم من يدعي العلم وينسبه إلى نفسه. إلا أن هذا الاختلاف بينهم لم يمر مـرور الكرام دون أن يترك أثرا بارزاً على نفوسهم، وعلى الحصيلة العلمية .

وهذا ما سوف نوضحه في الفصول القادمة من خلال تبيان الخصومات فـي إثراء النتاج العلمي

ونتيجة هذه الاختلافات بين العلماء ومدعي العلم ظهـرت الخـصومات بـين الطرفين، ولكلٍ منهما سلاح فسلاح، العالم علمه وأخلاقه، ومعرفتهِ بالسير الذاتيـة لمدعي العلم للرد عليهم، أما مدعي العلم الذي لا حول له ولا قوه إلا منصبه ومالـه وشعوره الكاذب بحاجةِ الناس إليه .

ومن ابرز الخصومات التي دارت في ذلك العصر خصومات السيوطي مـع (شمس الدين السخاوي، وأحمد بن الحسين بن العليف، والبرهان الكركي، وأحمد بن محمد القسطلاني، والشمس الجوهري والشمس الباني، وكان أشد خصومه السخاوي الذي كان يقود هذا الفريق، ويتهم السيوطي بسرقة بعض مؤلفاتهِ والإغارة على كتب المكتبة المحمودية واغتصاب الكتب القديمة التي لا عهد للمعاصرين بها) [5].

---

1 القلقشندي ، صبح الاعشى ج 6 ، ص 17

2 نفسه، ج 5 ، ص 436

3 السبكي: معيد النعم ومبيد النقم ، ص 83

4 القلقشندي، ج6 ، ص 436

5 السخاوي، الضوء اللامع : ترجمة السيوطي

وتعود أسباب هذه الخصومات إلى الحسد والبغضاء، أو خـلاف عميـق فـي الرأي، (ومن الموضوعات التي حسد عليها السيوطي دعوات الاجتهاد وأنـه تبعـاً لذلك الإمام الذي أرسله ا على رأس المائةِ التاسعة ليجدد للأمة دينها) [1]،

وهذا ما أشار إليه السيوطي في مقامتهِ الموسومة "طرز العمامة في التفريـق بين المقامة والعمامة"، حيث تحدث ابن الكركي باسلوب ساخر من السيوطي (أنـزل ملاك من السماءِ إن هذا بعثه ا ً في هذه القائمةِ) [2]، ورد عليه السيوطي بقولهِ: فهل ملاك من السماء للمبعوثين قبلي في المئين الثمانيةِ المتقدمة من أولئك الفئة؟! أم علموا ذلك هم والناس بغزارة علومهم واتساعهم. ورسوخ قدميهم وطول بـاعهم، وسـعةِ دائرتهم واطلاعِهم، وانتشار علومهم في الأمصار، وسير تصانيفهم إلى الأقطار، كما وقع لي ذلك فضلاً من العزيز الغفار؟ فليس في الإسـلام قُطـر إلا وقـد وصـلت تصانيفي إليه، ولا مِصر إلا وتجد شيئاً من كُتبي لديه، ووصلت إلـي مـن علمـاء الأمصار المطالعات والرسائلُ، ما بين راغبٍ في تأليفي وطالبٍ لجواب ما بعث بـهِ من الفتاوى والمسائل، ولو كان هنالك أحد بهذه المنزلة، لوصل إجباره إلـي كمـا وصلتِ الأخبار مني له) [3] .

وسوف نترك الحديث عن هذه الخصومات والردود عليها بشكلٍ مفصل عنـد الحديث عن المناظرات والتأليف. وكلنا نعلم أن لكل عـالمٍ أتباعـاً، وهـم الخلـص المقربين إليه ويناحرونه في كل صولاتهِ العلمية، تلاميذهم الذين تعلو مكانتهم بمكانه معلمهم، ولقد أشار السيوطي إلى استغلال مدعي العلم الذي يقل معرفةً من طلبتـهِ ويعد من طلبةِ طلبته لدنوا معرفهِ العلمية (خصوصاً وأنت في طلبة طلبتي معدود)[4] وأضاف أيضاً عن دور التلاميذ الذين يستغلون من قبل مدعي العلم (كم لـك علـى تلميذي القيمري من اشتغال، وبحث عند التنازع في الأعمال، وكم نـداءٍ واسـتغاثةٍ

1 الشكعة، جلال الدين السيوطي، ص 82

2 السيوطي، شرح المقامات : ص 687

3 السيوطي، شرح المقامات، ص 678 3

4 السيوطي، شرح المقامات، ص 804

وندبةٍ، وكم فجر اك من دملٍ وفّرج اك من كُربةٍ، وكم جرك لفضلٍ ودروسٍ، وبرك بأكلٍ وفُلوسٍ، وكم دعاك لخدمتهِ) [1]

وهذا النص أشار فيه السيوطي إلى استغلال بعض العلماء التلاميـذ النجبـاء واجتلاب ما يريده من علوم بكل راحةٍ يحصل عليها وذكرتُ هاتين الحالتين لأنهمـا قضيتان مهمتان تُبرزان تفوق الطلبة ومدى استغلالهم من قِبل مدعي العلم. بعيداً عن دور الطلبة المعروف من تلقي العلوم والعمل كمعيد إلى جانب أُستاذه وهذا ما سوف نذكره أيضاً. في جانب سير العملية التعليمية، ولكن هل كل من تعلم حرفـاً أصـبح عالماً، ودون أن يحمل يؤهله لهذه المكانة، بالطبع لا، فعلى كل من يرغب أن يحمل لقب علم عليه أن يحصل على الإجازة العلمية من اجل ممارسة التعليم، وهـذا مـا سوف نتاوله في الموضوع التالي.

---

1 السيوطي، شرح المقامات، ص804

الفصل الثاني
الإجازات العلمية

1.2 الإجازات العلمية

لم يعرف العصر المملوكي ما يعرف بالامتحانات التي تقرر جاهزية طالب العلم للتعليم أو مزاولتهِ، بل ظهر ما يعرف الإجازات العلمية، التي تعد الصورة البدائية لما يعرف بالشهادات في زمننا، حيث تنبئ بإنها الطالب مادةً تُمكنه من تحديد تخصصه. واشارت المصادر إلى وجود ثلاث طرق للحصول على الإجازات ومن هذه المصادر ما ذكر القلقشندي في كتابهِ صبح الأعشى في صناعة الإنشاد (الإجازات بالفتيا والتدريس والرواية وعراضات الكُتب ونحوها) [1] .

1.1.2 الإجازة بالفتيا والتدريس

جرت العادةُ انه اذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس، أن يأذن له شيخه في أن يفتي ويدرس، (ويكتب له بذلك وأن يكون ما يكتب في الغالب في قطع عريض، وتكون الكتابة بقلم الرقاع اسطراً متوالية بين كل سطرين نحو أُصبع عريض) [2] ومن الأمثلةِ على هذه الإجازات، إجازة سراج الدين أبي حفص عمر بن أبي الحسن المعروف بابن الملقن (ت 804) للقلقشندى بالإفتاء والتدريس في عام (778هـ)، إذ قال سراج الدين:(ما نُسب إلي في هذه الإجازة المباركة من الإذن بتدريس مذهب الإمام القُطّلِبي، محمد بن إدريس الشافعي - قدس ا روحه - والإفتاء بهِ لفظاً وخطاً صحيح فإنه ممن فاق أقران عصره بذكائه، وبرع عليهم بالاستحضار وتحرير المنقول ووفائه) [3]

وهذه الإجازات تكون إما بالإفتاء والتدريس كالإجازة السابقة، أو بالتدريس كإجازة القشيري لعماد الدين محمد بن علي بن الحسين القوصي، منح الإجازة

---

1 قلقشندي، صبح الاعشى في صناعة الانشاء، ج 14، ص 364، 365

2 القلقشندي، صبح الاعشى، ج 3,8,14

3 القلقشندي، صبح الاعشى ،ج14، ص368

650هـ، أما الإفتاء الاجازة التي منها علي بن وهب للفقيه الشافعي محمد بن صـادق بن محمد الأرمنتي (ت690 هـ).

الإجازة برواية: وتتمثل بتقديم طلب من العالم إلى من هو أعلم منه، يطلب منه الإجازة لنفسه، واكبر مثال على هذه الإجازات، إجازة أبي حيان الغرناطي لصلاح الدين الصفدي (وكتبت له أستدعي إجازته بما صورته ... إجازة كاتب هذه الأحرف ما رواه .... فسح ا في مدته ـ من المسانيد والمـصنفات والـسنن والمجـاميع الحديثية والتصانيف الأدبية، نظماً ونثرا إلى غير ذلك من أصـناف العلـوم علـى اختلاف أوضاعها وتباين أجناسها وأنواعها مما تلقـاه بـبلاد الأنـدلس وإفريقيـا والإسكندرية والديار المصرية والبلاد الحجازية، وغيرها من البلـدان، بقـراءة أو سماع او مناوله أو إجازة خاصة أو عامه كيفما تؤدي ذلك إليه، وإجازة ماله.أدام ا إفادته من التصانيف في تفسير القرآن العظيم والعلوم الحديثة والأدبية وغيرها من نضم ونثر إجازة خاصة، وإن يثبت بخطهِ تصانيفة إلى حين هذا التاريخ وان يجيـز إجازة عامه لما يتحدد من بعد ذلك على رأي من يراه ويجوزه منعمـاً متفـضلاً أن شاء ا ، فكتب الكتاب ما صورته: (أعزك ا ظننت بالإنسان جميلاً فغالين .. وقد أجزت لك أيدك ا ـ جميع ما رويته عن أشياخي بجزيرة الأندلس وبلاد إفريقيـة وديار مصر والحجاز وغير ذلك بقراءة أو سماع أو مناولة وإجازة بمشافهة وكتابة وغير ذلك، وجميع ما صنفته واختصرته وجمعته وأنشأته نثراً ونظماً، وجميع مـا سألت في هذا الاستدعاء) [1]

2.1.2 الإجازات بعرض الكتب:

جرت العادة أن بعض الطلبة إذا حفظ كتاباً في الفقه، أو أصول الفقه أو النحو أو غير ذلك من الفنون يعرضه على مشايخ العصر، فيقع الشيخ المعـروض عليـه ذلك الكتاب، ويفتح منه أبوابا ومواضيع، يستقرئه إياها من أي مكـان اتفـق، فـان مضى فيها من غير توقف ولا تلعثم، استدل بحفظه تلك المواضيع على حفظهِ لجميع

1 المقرى التلسماني،احمد :نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب،شرح مريم الطويـل ، دار الكتب العلميه ، بيروت، ط1، 1996م،ج 3،ص 293,294

الكتاب، وكتب له بذلك كل من عرض عليه، في ورق مربع صغير، يأتي كلٌ مـنهم بقدر ما عنده من الملكةِ في الإنشاء) [1]

ومن الملاحظ مما سبق ان للإجازات العلمية شكلين، وهذا ما أوضحه أحمـد الشلبي في كتابهِ الموسوم "التربية والتعليم في الفكر الإسلامي"، إذ الإجازة إما سماعاً أو لفظاً. سماعاً: هو لفظ اصطلاحي أُطلق على الشهادات التي وردت بهـا بعـض النماذج والتي تُمنح بعد ان يتم الاتصال بين المدرس والطالب فيسمع هذا مـن ذاك ويمنح (سماعاً) ويبيح المدرس فيه للطالب ان يروي منه ما رواه له) [2]

اما اللفظية (وهي الدالة على إذن يمنح بدون تعليم يمنحه شيخ إلى آخر يجيـز فيه الأول للثاني رواية أحاديث معينةٍ رواها الأول أو درس كتاب ألفه) [3].

ولكن هل أكدت النصوص النثرية (المقامات) ما روتـه لنـا كتـب التـاريخ والأدب، والملاحظ على ما ذكره السيوطي في مقاماتـهِ أثـر الأجـازات الـسلبية وخصوصاً إجازة رواية الأحاديث الباطلة التي ذكر عقوبة روايتها ومقرها (أن مـن روى حديثاً باطلاً أو أقره، كان النبي صلى ا عليه وسلم ـ خصمه يوم القيامة)[4]، ولكنه أشار إلى ما يعرف بالتقاريض التي تُعد من نفس جنس الإجـازات إلا أنهـا عبارة عن شروحات من كبار علماء على مؤلفات العالم (ولعـل إيـراد الـسيوطي بعض تقاريض شيوخهِ ...ما يدل بوضوح على أن مثل هذه التقاريض كانت باعثـا له على الكتابة، واعترافاً مبكراً بأهليتهِ للتأليف) [5]

---

1 القلقشندي: صبح الاعشى، ص 369

2 الشلبي، احمد: التربية والتعليم في الفكر الإسلامي ، مكتبة النهـضة العربيـة المـصرية ـ القاهرة، ط 11 ،1999،ص 266-

3 الشلبي، التربية والتعليم، ص 266

4 السيوطي، شرح المقامات : ص 230.

5 الدروبي، ظاهرة التعدد والكثرة ص 51

(قد جرت العادة أنه إذا صنف في فن من الفنون أو نظم شاعر قصيدة فأجـاد فيها أو نحو ذلك، أن يكْتُب له أهلُ تلك الصناعة على كتابهِ أو قصيدتهِ بـالتقريض والقدح معاً، ويأتي كل منهم بما في وسعهِ من البلاغة في ذلك) [1] .

ومن ذلك ما كتب به الشيخ صلاح الدين الصفدي على مصنف الشيخ تـاج الدين علي بن الدرهم الموصلي الشافعي ... وقفت على هذا التصنيف ... ونشر به في المذهب الشافعي أعلامه ... كم فيه من دليل لا يعارض بما ينقُصه، وكم فيه من حجةٍ يكِل عنها الخصم لأن عقله على محك النقد يعرضه؛ قد أيدها ادعاؤه بالحديث والأثَر، ونقل مذهب كل إمام سبق وما عثَر، لقد سر الشافعي بنص قوله الذي هذبه، وجعل أعلام مذْهبهِ مذْهبة) [2] .

ومما تقدم نجد ان الإجازات العلمية تعد عنصراً أساسيا في العملية التعليميـة فهي تأشيرة الدخول لعالم إلى حرم الحياة العلمية في أي مجتمعٍ كان، وهي إحـدى العلامات الفارقة بين العالم ومدعي العلم، والممهد الأقوى في نشر علم العالم بعـد مصنفاتهِ.

ومن الإجازات (ما حرص السيوطي على نيلهِ من شيوخهِ وخاصـةً الإعـلام منهم وقد أجاره البلقيني محمد بن موسى السيرافي (ت891ه) والكافيجي[3] وكانـت تقام احتفالات بالانجازات الثقافية وعن ذلك يقول المقريزي "في يوم السبت 8 شبعان سنه 842ه، جمع الحافظ قاضي القضاة أبو الفضل أحمد بن حجـر أعيـان الدولـة وفيهم المقام الناصري ممد ولد السلطان (جقمق وغيره من الأمراء وكاتـب الـسر وناظر الجيش والوزير والقضاة وشيوخ العلم فـي عامـة طلبـه العلـم وغيـرهم وفاجتمعوا بأعلى الخمس الوجوه من ارض التاج خارج القاهرة وكان الوقت شـتاء والأرض مخضره بأنواع الزراعات، والخيول على مرابط ربيعها وقدم لهم أنـواع الحلوات وألوان الأطعمة الفاخرة ما يجل وصفه ويكثر مقدارة، وقد أكمل تـصنيف كتاب " فتح الباري بشرح صحيح البخاري" في عشرين مجلداً، ثم قرئ من أخـره

1 القلقشندي: صبح الأعشى، ص378

2 القلقشندي: صبح الأعشى، ص378

3 الدروبي : ظاهره التعدد والكثره، ص 51

مجلس خفيف، وقام بعد ختمهِ الشعراء فقرأ عدة منهم قصائد في مدحـهِ هـذا وقـد اجتمع بهذه المنظرة وحولها من أسفلها عالم كبير من الرجال وغيرهم، نصبت هناك سوق وضربت خيام عديدة فكان من الأيام المذكورة التي لم تعهد في معنـاه مثلـه، انفق فيه مال جزيل على ما قدم من المأكل، وما أجيز به الشعراء في هذا اليوم وفي يو أخر بعد أن اجتمعوا فيه بخانكاه بيبرس من االقاهرة، وقام فيـه شـعراء اخـذ بمدائحهم، فأُجيزوا بجوائز عديدة، وفرق أيضاً مال جم في جماعة كثيرة، كتبوا هذا الشرح، والحافظ المشار إليه يملِيه عليه بهذه الخانكاة حتى أكملوا نسخه في أعـوام، فكان هذا من المأثرة السنية والفضائل الجلية التي زادت في رفعته[1].ومن خلال هذا النص يبين لنا أن صاحب الرعوة هو المؤلف نفسه، وتقدم خلال هذا الحفل أنـواع مختلفة من الحلوى والأطعمة على نطاق واسع وذلك لكثره الحـضور المجتمعـين لمشاهده الاحتفال ومقام الشعراء والجوائز التي تقدم لهم، والقيام بعمل نسخ يمليهـا المؤلف على النساخ كي يتوفر بأعداد كبيره لمن يرغب بالاطلاع عليه، وكانت مده الاحتفال يومين الأول أُقيم في ارض التاج خارج القاهرة والثاني بالخانكاة البيبرسية.

---

1 المقريزي، تقي الدين احمد بن علي(ق845ه): السلوك لمعرفه دول الملـوك، مطبعـه لجنـه الكتب والترجمه والنشر، ط2 1957م 1019,1108,3,4

الفصل الثالث

المناظرات

من أبرز مظاهر النشاط الفكري في ذلك العصر المناظرات والمحاورات التـي كان القوم يعقدونها ويخصونها بإهتمامهم، ولكن هذا الاهتمام نابع من تنافس العلمـاء فيما بينهم، من أجل إثبات أحقية تواجدهم في الساحة العلمية. فالمناظرة لغةً: مشتقه من الفعل ناظر على وزن فاعل وتعني اشتراك شخصين في أداء عمل واحد في الوقـت نفسه[1]. إلا أن هذا المفهوم تطور إلى الاصطلاحية وكان ابن منظور هـو أول مـن لامس روح المعنى الاصطلاحي لهذا المفهوم (والمناظرات أن تُناظِر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معاً كيف تأتيانه) [2]

اصطلاحا: المناظرة علم يعرف بهِ كيفية آداب إثبات المطْلوب، أو نفي دليله مع الخَصم) و(وهي النظر من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب)[3] وامتاز العصر المملوكي بصراعات فكريه عنيفة بين العلمـاء وأعـوانهم، وكـان أساسـها الخصومات القائمة بينهم، إذ ذكرت كتب الأدب وتراجم الأدباء، ما يشير إلى انتـشار المناظرات بينهم، ومن أشهر قضيه في التاريخ قضيه خلق القرآن الكـريم والـسؤال المطروح هنا، هل لها شروط وأشكال وموضوعات وما حكم الشرع فيها؟

1 الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت393) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق احمد عبد الغفور، دار العرب للملايين _ بيروت، ط 4، 1990، ج4، مادة نظر

2 ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي الأنصاري (ت711) لسان العرب ، دار الكتب العلمية _ بيروت، 2003م، م10، مادة نظر لسان العرب مادة (نَظَر)

3 طاش كبرى زادة رسالة آداب البحث وشرحها .بسلـسة نفـائس المخطوطـات رقـم4 .دار المعارف ـ بغداد، 1955، ص28 .نقلا عن الصديق، حسن المناظرة فـي الأدب العربـي الإسلامي، المصرية العالمية ـ مصر، ط 1، 2000م، ص 60.

1.3 شروط المناظرات

ا- يجب أن تدور بين طرفين على الأقل، يسعى كل منهما إلى دحض رأي الآخـر بالأدلةِ والبراهين، قائمه على أساس الحوار أو المكاتبات لكن الحوار القائم بين المعلم والمتعلم لا يعد من المناظرات[1]

2- أن يكون هدف المناظرة إظهار الحقيقة التي يعتقد كل من الطرفين امتلاكها.

3- لا يمكن الوصول إلى هدف المناظرة إلا عن طريق النظر والبحث عن الحقيقة بوساطة البصيرة فالبصيرة هي صفاء القلب وأداته هي الوصول إلى الحقيقـة، والقلب هو جوهر الإنسان ومصدر الإلهام[2] .

4- الهدف من المناظرة إبراز الفرق بين المناظرة والجدل. فالجدل يكمن هدفه فـي الدفاع عن قضيةٍ ما وليس إظهار الحقيقة المطلقة[3] .

5- لعل إلحاح المؤلف وتأكيده على أن هدف المناظرة هو الحقيقة المطلقة يأتي من كون المؤلف قد رأى أن غالبية سابقيه من أعلام المناضرين لـم يكونـوا فـي المناظرات بهذا الهدف[4].

المناظرات في المقامات: أما المناظرات الأدبية في المقامات كما أوضحها لنا السيوطي بأنها مناظرات علمية تقوم بين طرفين بينهما خصومه وعدائيـة، بـسبب تفوق احدهما على الآخر، بكثرة مصنفاته التي تعد إشارة واضحة على غزارة علمهِ وتبحره في صنوف العلم، ومن خلال المقامات تبين لنا أن المناظرات لها عناصـر رئيسية وهذا ما أوضحه لنا السيوطي في مقامتهِ. وبدايةَ هذه المناظرات الخصومات بين العلماء، التي أثارت حفيظتهم للمارزة فيما بينهم، ليبرزوا ما لديهم من علوم، (ثم إنك تلهج بذكر المناظرةِ وأنت لا تتصور مالها من الكيفيةِ، ولا تـدري مـا قـرره الأئمةُ لها من الشروطِ الوفيةِ، وأكثْر ما عندك أن تحفظ أسئلةً مذكورةً في "الكشافِ"،

---

1 صديق، حسين: المناظرات في الأدب العربي، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمـان، 2000، ص 60

2 انظر نفسه، ص 61

3 انظر نفسه، ص 62

4 انظر نفسه، ص 62

وتلقيها على التعنت لا الإنصاف، ويكون لذلك السؤال عدةُ أجوبة وتوجيهـات فـي غيره من الكُتبِ مهذبة، فإذا أجبت بشيء منها رددتَه بفحشٍ وبذا .. وقلت لا، ما قال صاحب "الكشاف" كذا، فهل قال لك صاحب الكشاف: إنه لا جواب غير الـذي فـي كتابه؟! ما هذا الذي تفعله طريقة المناظرةِ ولا ناظر أحد هكذا في الأزمنة الغـابرةِ، إنما طريقةُ المناظرةِ ما أُنبئك به فاستفده مني وارِوهِ عني، كان أئمةُ الدين إذا أرادو المجاهرةَ، وعقدوا مجلساً للمناظرةِ هما فريقان: محدثٌ وفقِيه، فالمحدثُ يلقي أحاديث ويسأل عن حالها صحةً وضعفاً، والفقيه يلقي مسألةً خلافيةً، وينتصر لأحد القولين، ويقيم الدليل عليه بالنقل والقياس بجدٍ واجتهاد) [1].

ويوضح لنا هذا النص المقتبس من مقامـة "الـدوران الفلكـي علـى ابـن الكركي"[2] خطاب السيوطي الذي وجهه إلى ابن الكركي الذي يطالب بالمناظرة لكي يثبت لناس قدرته بالتفوق على السيوطي وعدم اقتناعهِ بما حدث له في المرةِ الأُلى، مشيراً إلى وجود شروط خاصة بالمناظرات يجب مراعاتها، وعلى المتنـاظر أن لا يعتمد على كتاب الكشاف الذي يشمل العديد من الأسئلة والإجابـات التـي يمكـن للمتناظر الرجوع إليها، ويحفظها، علماً بأنها ذات سلبية كبيرة، إذ يرد كل ما يطرح من إجابات وذلك لحفظ المتناظر إجابةً واحدة غير التي يعرفها المتناظر الثاني مـن إجابات جديدة من كتب مختلفة، كل من الطرفين يلقي ما يناسب عِلمه ويقدم عليـه الدليل والبرهان.

2.3 أخلاقيات المتناظرين في كتب الأدب والتاريخ:

1- لا يجوز للمتناظرين رفع الصوت أثناء المناظرة.
2- يجب أن يسود المناظرة الهدوء والنظام، ويجب استبعاد الجلبةِ والفوضى الناتجةِ عن اشتراك كل الحاضرين في الحديث.
3- على المتناظرين قبول الحق والتسلم بهِ في حال ظهوره مع احد الخصمين.

---

1 السيوطي، شرح المقامات، ج 1، ص 385 – 386

2 السيوطي، شرح المقامات، ج 1 ص 370-419

4- يجب تجنب المناظرة للمناظرة؛ لان ذلك يؤدي إلى الجدل والشغب اللذين يفقدان المناظرة اتزانها ويحرفانها عن هدفها [1]

أما أخلاقيات المتناظرين (وذلك بأدب وحفظ لسانٍ، وحسن تَـصرفٍ، فـي الكلامِ وإحسان، وسكون أطرافٍ واذعانٍ للحق واعترافٍ وتقـديم تـصحيح للنيـة، وإخلاص للطوية، ولا يقصدون بذلك الا وجه ا الكريم) [2] وهذا النص أوضح من أن يفسر، مشيراً إلى اخلاق العالم الحق، أما أخلاق مدعي العلم في المناظرات (أما أنتم فلا تتصورون شيئا من ذلك، ولا تدرون كيف تسلكون هـذه المـسالك؟! بـل تتجادلون الأهواء، وتخبطون خبط عشواء تخرجـون إلـى المـشاتمة والمـسافهة، والملاعنةِ بالمشافهة، فهل هذا فعل المجانين؟!! فعل المعتنين بالعلم والمعـانين، وإن كانت النيةُ قبل ذلك غير صحيحةٍ، والقلوب بالإخلاص غير سمحةٍ) [3] أما الهـدف من هذه المناظرات، هو إحياء العلم على الطريق الـصحيح، والـسير فـي هـذه المناظرات على نهج السلف، محتاجين بذلك إلى الدليل والبرهان (.. وإحياء العلـم على الطريق المستقيم هذا مصطلح السلف ومن اقتفى آثارهم من الخَلـفِ) [4]، أمـا حكمها الشرعي، فقد أشارت المقامات إلى حكم المناظرات مع تبيان أسباب التحريم والإباحة. وتكون مباحةً إذا (شُرعت المناظرة عند وقوع الاختلاف في فتيا، فيـتكلم فيها المفتون نقلاً وبحثاً، نصاً ورأياً إقامة لكلمةِ ا العليا، وإظهارا للـصواب فـي الحكم وإحياء) [5]

(وخاطت من سائلٍ مستفيدلا جد لي والكلام فيها بعيد عن التحريم والعقـاب من الوجوب والثواب، والجواب فيها متعين، ووجه القُربةِ بالخوض فيها بين) [6] أما حكم تحريمها (.. يلهج بذكر المناظرةِ التي هي حرام بإجماع العلمـاءِ فـي جميـع

1 الصديق: المناظرة في الأدب، ص 96

2 السيوطي، شرح المقامات: ج1، ص 387

3 السيوطي، شرح المقامات:ج 1، ص387

4 السيوطي، شرح المقامات:ج 1، ص387

5 السيوطي، شرح المقامات:ج 1، ص387

6 السيوطي، شرح المقامات : ج1، ص 387

الإعصار، ونَهى عنها رسول ا صلى ا عليه وسلم وتوعد عليها، ببيتٍ في النار، وعن بعض العلماء انها موجبةٌ للإكفار، ولم يستح من ا ِ تعالى ومن النبيّ صلى ا عليه وسلم حيث يطلب شيئاً هو منهي عنه ومحرم) [1].أمـا طبيعـة الموضـوعات المطروحة فهي تتفاوت بتفاوت مستوى المتناظرين بالسهولةِ، وخير مثال على ذلك وصف السيوطي لإحدى مواجهاتهِ لابن الكركي (فأخذ يتَعنتُني بالمسائل واحدةً بعـد أُخرى، يطارحني بما أنا بل بعض طلبتي بهِ منه أدرى)[2] (إنما شُرعت المنـاظرة عند وقوع الاختلاف في فتيا) [3]، (وأما الحديث وما أدراك ما الحـديث) [4] وهـذه الموضوعات تطرح على شكل قضايا في المناظرات .

(وسالته عما فيها من الخاص والعام، وما الفرق بينه وبين ما في الأصول من ذلك وعلم الإحكام ؟!وما فيها من المطلق والمقيد ومن كل نوعٍ بناه البـاني وشـيد ....ومعاني أبيات مشكلةٍ وأسبابها وفتحتُ معه الكلام في الفقه وأصولهِ على طريقة الاجتهاد والاستدلال، وفجرت لهُ ينابيع الأدلة وما عليها من مقالٍ من بحثٍ وسؤال، ونزاعٍ وجدال وردٍ وإقبال ومسالك إعـتلال وخـضتُ بـهِ سـاحلَ المعارضـات والمناقضات) [5] .

ومن أشهر المناظرات التي ذكرها السيوطي فـي مقاماتـهِ صـورةٌ لإحـدى المناظرات بين محدثٍ وفقيه (عقدوا مجلساً للمناظرة، هما فريقان محـدثٌ وفقيـه، فالمحدث يلقي أحاديث ويسأل عن حالها صحةً وضعفاً، وعن ما فيها من علةٍ قادحةٍ تخفى، فهنالك قد تبين الناقد ويظهر اليقظان من الراقد، والفقيه يلقي مسألةً خلافيـةً، وينتصر لأحد القولين ويقيم الدليل عليه من النقل والقياس بجد واجتهاد) [6] .

---

1 السيوطي، شرح المقامات، ج 2، ص 966

2 السيوطي، شرح المقامات، ج1 ، ص 378، ج2، ص 966

3 السيوطي، شرح المقامات، ج1 ، ص 376

4 السيوطي، شرح المقامات، ج1 ، ص 378

5 السيوطي، شرح المقامات، ج1 ، ص 379

6 السيوطي، شرح المقامات، ج1، ص 382، 383

ومناظرة السيوطي والجوهري، وما فعله الجوهري بالسيوطي حيـث تفـوق عليه، إذ كتب الجوهري على رقعةٍ أفتا فيها السيوطي بانه قد أخطأ في هذا الـرأي وشاع هذا الأمر (ومن جملتها كتابته تحت خطي في رقعةِ الإفتاء المتعلقة بمـسألة رعاية الغنم) [1]

ولا ننسى مناظر ابن الكركي مع خادم السيوطي التي تُعد اكبر إهانةِ ودليـل على ضعف ابن الكركي في الساحة العلمية (لقد ناظرك خادمي فما طلعت لك معـه طالعةٌ، ولا برقت لم معه بارقة، وأقام عليك من الكتاب والسنةِ والحجةِ وأرشدك إلى سواء المحجة، فقابلته بالإساءة فحفظ لسانه ووقرك) [2] وأشار إلى العقوبات الواقعة على الخاسر بالمناظرات، وما يحكم علية العلماء (فأفتينا بتأديبك وتقويمـك، بآلـةِ التعزيز وتهذيبك، وأرد أن يرفع أمرك إلى الحكام) [3] ومن العقوبات أيضاً (ومـن العجب أنهُ قالَ عند طلب المناظرة: نتراهن بحلق الذقون فيا أهل النُهى والعقول هل فاه بذلك العلماء الموقِنون ؟!) [4] ومن المناظرات القائمة على الحوار ما ذكره لنـا في مقامتهِ الأسيوطية. وفي الختام يتضح لنا أن المناظرات تقوم على عناصر متمثلة بالشخوص(المتناظرين، الحكام، الحضور)، وموضوعاتها (الألغاز، الفنون اللغويـة والأدبية، والدينية أو العقائدية وفي مختلف العلوم)، ولها أماكن متعددةٍ وقـد تكـون مشروطة أو دون شروط هدفها نشر العلم، وإثبات جدارة العالم والرد على الخصوم، أو التسلية.

---

1 السيوطي، شرح المقامات، ص 386

2 السيوطي، شرح المقامات، ج 2، ص744

3 السيوطي، شرح المقامات، ج 1، ص 384

4 السيوطي، شرح المقامات، ج1، ص 484

الفصل الرابع
الحركة التأليفية

شغلت العملية التأليفية حيزاً كبير في التاريخ، وتنوعت بتنوع الموضـوعات وأهميتها فمنها كتب التراجم، والطبقات (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لمحبي الدين الطبري المكي "ت 684هـ" وطبقات الأطباء عند تاج الدين أبي طالب علـي ابن الساعي البغدادي "ت 674هـ" إذ اشتملت كتب التاريخ على نوع مـن الـسرد القصصي التاريخي.

إلى جانب ذلك التأليف الموسوعي كمناهج الفِكر ومناهج العبر لجمال الـدين الوطواط "ت 718 هـ"، وطال التأليف جميع الموضوعات مـن فلـك وجغرافيـا ومعادن ونبات وحيوان وكيمياء وطب، بالإضافة إلى المعاجم كلسان العرب.

إلا أن الاجتياح التتري أثر على اللغة العربية بين طبقات الـشعب ذلـك لأن المماليك لم يكونوا عرباً، ولكنهم مسلمون، عنايتهم بالدين هي التي دفعتهم للإهتمـام باللغة العربية وأولوها عنايةً كبيرة لأنها لغة الإسلام وظهر عدد كبير من المؤرخين وكُتاب السِير.

والصفة العامة على مؤلفات ذلك العصر تمثل باختلاف الموضوعات سـواء أكانت دينية أم لغوية أم تاريخية، حيث يصدر عليها الحكم إما بالحسن أو بالقبح مع ذكر الشواهد والأدلة، فإذا كان المؤلف شارحاً فإنه ينقد صاحب المتن الذي تـصدى لشرحهِ أو المصنف الذي اطله عليهِ باختصاره إن كان مطولاً أو بسيطاً، التأليف في المقامات: اشتملت المقامات على كثيرٍ من الإشارات حول حركة التأليف في العصر المملوكي حيث وضح لنا منهجيتهم في التأليف ابتداء من اختيار الموضوع ودوافـع البحث ومصادرة وتوثيق نصوصهِ، دون الإغفال عن قضية السطول على المؤلفات، التي أرقت ذلك العصر وخاصةً العلماء مع تدخل الدولـة أو الـسلطة فـي هـذه المعضلة.

موضوع البحث في المقامات: اشار السيوطي الى طبيعة الموضوعات التـي شغلت فكرهم في ذلك العصر (فألفت كراسةَ على نمط (عنوان الشرف) فـي يـوم

واحد، وكفى با تعالي من رقيب على ذلك وشاهد، وضمنتها عربيـةً وعروضـاً، ومعاني وبديعاً وتاريخاً، أبهى من جوهر القلائد، والكواكب الشواهد .... ثم وضعت لهم مائةَ كلمة تحتوي على مواعظ وحكمةٍ....ثم اختبرت خُيولَ ذهني فـي إنـشاء مقامات) [1].

وقد يكون الموضوع علوم الدين والمسائل الفقهية، ومن ابرز هذه المـسائل فتوى البروز على الشواطئ، التي أثارت الكثير من الجدل بـين الـسيوطي وابـن الكركي وفتوى هدم بيت الفساد على الشاطئ (فإن تَحريم البروز في شُطوطِ الأنهار مجمع عليهِ بين المذاهبِ على مر الإعصار، وهو مكتوب في كُتب مذهبي مـذهبك من الأئمةِ الأخبار، فإن جهلتَ بذلك فَكفى بذلك عليك عارٍ) [2]. وقـد تكـون هـذه الموضوعات أعراض الناس كما فعل السخاوي مع أكابر وأعيان البلاد حيث خاض في إعراضهم، وكان مواضباً على ذلك طوال القوت دون مراعاة حرمة الأيام (شهر رمضان)، (... ألف تاريخاً جمع فيه أكابر واعيان ونَصب لأكل لحومهم خُواناً ملأه بذكر المساوئ وثلابِ الأعراض) [3].

أما دوافع البحث التي كانت سبباً في عملية التأليفية: وهي الإشارة إلى أسباب التأليف التي دفعت إلى إيجاد هذا المصنف في حيز الوجود، ومـن أهدافـه (..... مشيراً إلى ما أصنفُه في الوقائع العلميةِ ذكرى لمن هو ناسٍ، ورداً للخطـأ ببيـان الصواب وكشف الإلباس، وهذا فرض من فروض الدين) [4] أما مصادر البحث التي يستقي منها المؤلف معلوماته التي يبقى عليها مؤلفاته والعلوم :فقـد تعـددت لـدى العلماء في العصر المملوكي، وتنوعت من عالم إلى أخر، قد تكون المصادر لم يقف عليها من قبل (من نوادر البديع مالا ألم بهِ أحد من أصحاب البديعات) [5] أو النقـل

---

1 السيوطي، شرح المقامات، ج 1، ص 222-223.

2 السيوطي، شرح المقامات، ج 2، ص 753.

3 السيوطي، شرح المقامات، ج2، ص 935

4 السيوطي، شرح المقامات،ج 2، ص 706

5 السيوطي، شرح المقامات،ج 1، ص 382

من بعضهم البعض (بل نقل السبكي عن ابن عقيل الحنبلي) [1] دون إغفال المصادر الرئيسية وخاصة في أمور الدين من الكتاب والسنة (وأقام علية من الكتاب والـسنة والحجة وأرشدك إلى سواء المحجة) [2]، أو الرجوع إلى أحاديث العامة في التـأليف كما فعل السخاوي في تأليف علومهِ إنّما منتهى أمرهِ كثره السماع على شيوخ العامة والعجائز، وكتابةُ تواريخ ليس بها للفضل حائز) [3] هذه بعض الإشارات لمـصادر موضوعات التصانيف

أما عن كيفية التعامل مع الأدلة والنقول ما على البحث إلا القيام بما يلي:

1 ـ الإقبال عليها (ضمن أو وتأملها، والقى فكره لها ومالها، ونظر إليهـا منـصفاً، وضح له منها ما خفا) [4]

2 ـ النظرة الفاحصة الدقيقة، وإيضاح ما هو غامض منها وإيراد ما ورد مـن آراء في هذا الأمر (فأن كان ممن إذا نظر في الأدلة مازها، ومازها، إذا قـام قومـه الرجال ماسها، وماسها) [5] وهذا ما دعا إليه من تمييز الأدلة وفصلها دون تكبر وفخر وغرور. وإختيار المناسب دون سهو أو غرور أو تباطوء

3 ـ وضع الأدلة والبراهين والشواهد على المرجح من الارآء تأكيداً له

4 ـ إنفاق المال على علمهِ وما يعمل من العلم إن كان من أصحاب اليسار في المال (وليركب في ترجيحهِ كل هول، ولينفق في نصرتهِ من سعة ذات يدهِ إن كان ذا طول) [6] واللجوء إلى التريح عند تعارض النقول. والمقصود هنا في حال تعدد النقول والآراء في قضيةٍ واحد على الباحث اختيار الأكثر اتفاقـاً عليـه بـين العلماء. ومن خصائصها (لما قام عندي من ادلةٍ قاطعةٍ ساطعةٍ ناصعةٍ لامعـةٍ،

---

1 السيوطي، شرح المقامات، ج 1، ص 529، 530

2 السيوطي، شرح المقامات، ج 2، ص 744

3 السيوطي، شرح المقامات، ج 2، ص 948

4 السيوطي، المقامات: ج1، ص 590

5 السيوطي، شرح المقامات، ج1، ص 590

6 السيوطي، شرح المقامات، ج 1، ص 591

مانعةٍ، هامعةٍ رائغةٍ، صادعةٍ قامعةٍ) [1] لكن هذه النقولات والأدلة لها من أبدعها وهذا ما ركز عليهِ السيوطي في الجانب التوثيقي للمعلومةِ، وذلك بعزو الـنص بلفظهِ لصاحبه (وقد علم ا والناس من عادتي في التأليف أني لا أنقل حرفاً من كتاب أحدٍ إلا مقروناً بعزوه إلى قائلهِ ونسبتهِ إلى ناقِلهِ، أداء لشكرِ نعمتِهِ، وبراءةً من دركهِ وعهدتهِ) [2]، والهدف من هذا التوثيق هو الأمانة بهِ (تجنب الخيانـة- فأنها بئست البطانةُ- امتثالاً للحديث واقتداء باللائحـة فـي القـديم والحـديث، وتَحرزاً عن الكذبِ والتَشّبع، وتوفيةً لحق التتبع، ورغبةً فـي حـصول النفـع والبركةِ ورفع تصنيفهم إلى أعلى درجةٍ عن أسفل دركةٍ، وقياماً بـشكر العلـم وأهلهِ، وإعطاء السابق حقه لفضلهِ) [3] وعلى الرغم من حرص العلمـاء علـى أداء هذه الأمانة إلا أن هناك من لم يلتزم بها، وهذا أدى إلى ظهـور الـسرقات التأليفية كالسطو على الكتب وبعض الأفكار ونسبتها إما لنفسهِ أو لولي نعمتـه، ولدراسة هذا الموضوع لابد من تحديد أشكال السرقات وطرق الكـشف عنهـا وعقابها ومن أشكالها أو أساليبها السطو على المؤلفات البكر الأفكار(نبذ الأمانةَ وراء ظهرهِ وخانٍ، وجنى ثمار غُروسِنَا وهو فيما جناه جانٍ) [4]

أو سرقة عبارات (فسرق جميع ما فيها بعباراتي التي يعرفها أولُو البـصر، وزواد على السرقة ونسبها إلى نفسهِ ظُلماً وعدواناً) [5] ، والإدعاء بتتبع جميع أوصال الموضوع (تتبعتُ وجمعتُ) ومن أشكال السرقات التخيير للأفكار وجمعها في كتاب وعدم نسبتها للمؤلف (قد أغار على بعض ما فيه من الابريز فنقله بعينهِ إلى كتـاب جمع فيه أربعين حديثاً ...... إذ لم ينسبِ القولَ إلى القائل) [6] ومن أشكالها أيـضا قيام أحد التلاميذ بالأخذ من مؤلفات شيخه وعزو الزيادات للأصول التي نقل منهـا

1 السيوطي، شرح المقامات، ج1، ص 597
2 السيوطي، شرح المقامات، ج2، ص 951
3 السيوطي، شرح المقامات، ج 2، ص 824
4 السيوطي، شرح المقامات، ج 2، ص 819
5 السيوطي، شرح المقامات، ج2 ، ص 819
6 السيوطي، شرح المقامات، ج2 ، ص 827

أُستاذه دون التنبيه إلى أفكار أُستاذة (فأخذَ يصنف طبقات جمع فيها الأصل والمزيد، وعزا الزيادات للأصول التي نقل منها أستاذه) [1] لكن موقف أُستاذه منه اللوم والعتاب (فكتب له ورقةً يلومه فيها أشد اللوم) [2] أما الشكل الآخر من السرقات هو الإغارة على الكتاب كاملاً وتصدير ما أورده بقولهِ (أغار على كتب المصنفين، ولم يؤد الأمانة من المؤلفين) [3] ولسارق صفات، سارق سالخ وناسخ ودعوى الاطلاع على الأصول والتغير في التصنيف، حرمان الثواب ولا يدافع عنه أحد، وخمول ذكره وعدم نشر مسروقة، (وليشك في دفتر الخائنين شكاً) [4]

هل هناك طرق لكشف السارق؟! (حكي السبكي وغيره عن الشيخ أبي حامد الاسفرايني أنه قيل له: أن فلاناً صنف كتباً بكثرةٍ ، فقال أروني إياها فرآها مسروقةً من كُتبهِ، فقال بتر كتبي بتر ا ُ عمره، فمات ذاك عن قُربٍ) [5] ومن أساليب الكشف ايضاً عمل مناظرة بين السارق ومن سرق من مؤلفاتهِ بوجود محكم وذلك من خلال الحديث عن الموضوع المسروق لتحديد صاحب الحق ومن هذه المناظرات الكاشفة، المناظرة التي قامت بين مهذب الدين بن الخِيمي ونجم الدين بن إسرائيل حين نظم مهذب قصيدةً وسافر وتركها في خلوتهِ وسكن نجم الدين فوجد تلك الورقة فنسب القصيدة إلى نفسهِ، وقدم مهذب الخِيمي من السفر، فبلغه خبر القصيدة فشكاه إلى أبناء جنسهِ وتحاكما إلى الشيخ عمر بن الفارض، وأمر كلاً منهما أن ينظم قصيدةً على رويها وبحرها، فلما سمع القصيدتين وعرف النفس قضى لابن الخِيمي) [6] ونظم السيوطي (مقامة ساحب سيف على صاحب حيف) [7]، تحدث فيها عن السرقات الأدبية ونسبة مؤلفات الآخرين إليه التي أُتهم بها، وأشهر هذه

---

1 السيوطي، شرح المقامات، ج 2، ص 827

2 السيوطي، شرح المقامات، ج 2، ص 826

3 السيوطي، شرح المقامات، ج 2، ص 827

4 السيوطي، شرح المقامات، ج 2، ص 830

5 السيوطي، المقامات: ج2، ص 825

6 أُنظر السيوطي، المقامات: ج 2، ص 834

7 أُنظر السيوطي، المقامات: ج1، ص 554 ـ 566

الاتهامات إتهام السخاوي وبرهان الدين النعماني للسيوطي بسرقة مؤلفٍ في الخصال الموجبةِ للظلال. لكن السيوطي اثبت احقيته في هذا المصنف وذلك من خلال حديثه عنه، وعما عاناه من جهدٍ في السعي وراء جمع اشلائهِ.

(إني ألفتُ في ذلك تأليفين ..... أحدهما مطول يسمى:-"تمهيـد الفُـرش فـي الخصال الموجبةِ لظل العرش ".....والثاني المختصر يسمى:-" بزوغ الهلال فـي الخصال الموجبةِ للظلال)، وطلب الطلبة كلا الكتـابين ...إلا أنهـم اكبـوا علـى المختصر أكثر من المطول، وقرأوه علي أولاً فأول) [(1)] مكملاً حديثه عـن موقـف الأمير برسباي الشرفي حين قصد بلاد الروم مصطحباً معه شهاب الـدين الطبـاخ حاملاً معه العديد من مصناتهِ بإشارة من الشيخ العلامة محـي الـدين الكـافيجي، وصحب معه (بزوغ الهلال)، ولم يدخل بلداً من البلاد الشامية والحلبية إلا وكتـب من نسخه. ثم تابع هذه المسيرة الأمير يشبك الجمالي بنشر كتبهِ في بـلاد الـروم، حيث نسخ هذا المختصر، وكان هذا الموقف شاهداً على دور السياحة في نشر العلم نُشر ايضاً في بلاد المغرب والتكرور والحجاز واليمين. وفي عام 880هـ ـ ابلـغ احدهم السيوطي عن درس اللقاه السخاوي عن الخصال الموجبة لظلال العرش وبأنه أوصلها إلى ثمانين، فالسيوطي نفى هذا عن السخاوي، (فزعم هو أنه وصلها إلـى الثمانين في كتاب ألفه وتأليفٍ صنفه، ثم أدعى إني غرت على كتابه، وأخذت ما فيه من المتشابه، وا يعلم ويشهد انه مبطلٌ فيما أدعاه على، وكاذب فيمـا نـسبه مـن الإغارة إلى، وأني لم أقف على كتابه هذا إلى الآن ..... ثم أن كتابي سار وطار في الأقطار وبلغ الناس منه الأوطار ودخل البلاد الشامية والحلبية....) [(2)] ومن أدلة دفع التهمة عن السيوطي أيضاً غير انتشاره هو أقدميه الكتاب وشكوى الـسيوطي هـذهِ القضية إلى اليعقوبي وطلب منه أن يكتب له الزيادة، التي تُعد محور الخلاف ورفع هذهِ العريضة للخليفة بعد أيام عاد إليه أخبره عن حكم الخليفة، وهذا يدل على مدى إتحاد العلماء مع رجال الدولة في الجوانب العلمية وذب الـذود عـن العلـم ومـن يتربص بهِ. يتم بين الخصوم وأعوانهم أتفاق يحمل معنى الانتقام مـن خـصومهم

---

1 السيوطي، المقامات: ج1، ص 559 ـ 560

2 السيوطي، شرح المقامات: ج1

ويكون ذلك بجعل العالم مدعي العلم يطلع على كتبهِ وينقل منها كلام العالم وفي حال اطلاع الخصم عليها والاستفادة منها، يكون في هذه الحالة قد سرق من قولهِ واستفاد ومن خلال ما سبق يتضح لنا أن تاريخ التأليف يحمي من الوقوع في مثل هذا اللبس وعلى الرغم من سلبية السرقات وضياع الحقوق الفكرية من أصـحابها ألا أن لهـا إيجابية واحده هي حفظ العلوم من الضياع وخاصة المضمون الفكري بصرف النظر عن صاحبها الأصلي سواء أكانت سرقات بـالبتر أم بـالتخيير أو بالـسطو علـى المصنف كامل المهم أثبات أحقية الأمة بهِ كفكر. وفي الختام على الرغم من صعوبة التأليف وتوخي الدقة فيه إلا أنه يفضل على المناظرة (لأن العلماء نصوا علـى أن التصنيف من فروض الكفايات، وقد يتعين والمناظرات على وجه المغالبة والمفاخرة حرام كما تبين) [1] وتعود أسباب التفضيل للتصنيف إلى (أن التصنيف مستمر النفع على مدى الدهر الزاهر والمناظرة منقضيةٌ للوقت، لما يستحق بهِ من ا والمقـت، فكيف تسوي بين فرض وحرام) [2]

1 السيوطي، المقامات: ج2، ص 708

2 السيوطي، شرح المقامات: ج2، ص 708

الفصل الخامس

موقف السيوطي من عصره

يعد السيوطي ظاهرة علمية متميزة في عصره ومن اعلام أعلام القرن التاسع والعاشر الهجريين إذ تعرض للعدائية من خصومهِ أمثال السخاوي، ولهذه العدائيـة اثر بارز على السيوطي والسخاوي في مجال التأليف والرد على بعـضهم الـبعض كقضية حديث سبعه يظللهم ا في ضلهِ واتهام السخاوي للسيوطي بسرقة الزيـادة على هذا الحديث وترجم السيوطي لنفسهِ عما رزق من العلم واعتبار هـذا الأمـر مفاخره من قبل السيوطي، والسيوطي لم يخطئ في ترجمتهِ لنفسهِ كغيره من العلماء أمثال لسان الدين بن الخطيب في (الإحاطة) وأبن خلـدون فـي تاريخـهِ ويـاقوت الرومي في معجم الأدباء والمتتبع لسيرة السيوطي يرى مدى اهتمامه بالكتب والحكم الذي درسه على يد مشايخهِ فضلاً عما كان يقرأه بنفسهِ لنفسهِ، ومن جانـب أخـر ملازمة السيوطي لمكتبة محمود الاستادار التي عرفة بالمكتبة المحمودية وكان بهـا أربعة الألف مجلد وعمل على فهرستها، أما من ناحية الرحلة وهي أمر ضـروري لاكتمال تحصيل العلم فأن السيوطي لم يكتفِ بالرحلات الداخلية في هـذا المجـال، ونتيجةً لتعرض السيوطي للخصومات والهجمات قرر السيوطي الاعتزال عن الفتيا في اكثر من مقامة (المقامة المزهرية المسماة بالجنح إلـى الـصلح، والاستنـصار بالواحد القهار والمقامة اللؤلؤية) يقول السيوطي في المقامة المزهرية: أنها تـصدى لإفتاء سبع عشرة سنة، وبقى في الإفتاء والتدريس إلى أن بلغ من العمـر أربعـين سنه، وبعد ذلك أنسحب من الحياة العامة وترك التدريس والإفتاء.الاستنصار بالواحد القهار يزيد السيوطي الأمر إبانة وتوضيحاً فيذكر أنه قاسى كثيراً من تصدية للفتوى ونال بسبب ذلك ما يشكل له عذراً وسبباً فلا يفتي بعد ذلك ولا يجيب سـائلاً مـن مسألة.

وأما المقامة اللؤلؤية يشير فيها السيوطي إلى أنسحابهِ من التـدريس والفتيـا شرحاً وافياً ويقول (.... ليس هذا زمان الصبر، الصابر فيه كقابض على الجمـر،

رأينا فيه ما أنذر بهِ الرسول وصحت بهِ الأحاديث والنقول)[1] ويمضي الـسيوطي في تقرير حال زمانه وتسجيل سوءات عصره مبرراً القرار الذي اتخذه بالامتنـاع عن التدريس والفتيا في مقامتهِ اللؤلؤية ويتضح لنا من خلال هذه المقامـة كثـرت الاستفسار عن سبب الامتناع لدى السيوطي عن الإفتاء والتـدريس، حيـث عاتـب السيوطي من يعادية فيما أصدره من علوم وخاصة الإفتاء، وبينـت ايـضاً سـبب المعادة على الرغم من التزامهِ الطرائق الصائبة وفي هذا المجال، وأشار الـسيوطي ايضاً إلى وجود أعذار قدماً عند اعتذاره عن الفتيا والتدريس وذلك (الشح المطـاع، ودنيا مؤثره وهوى له ذو أتباع، وإعجاب كا ذي رأي برأيهِ وذلك عين الابتداع، وقد مرجت الأمانات وكثر القائلون بالزور والشهود .... وخون الأمين .... وتكلم الرجل التافه في أمر العامة وتعلم المتعلم لغير العمل)[2] ويشير السيوطي في حال ظهـور هذه الأسباب من شُح ومطامع ومؤثرات الحياة ومغيراتها، إلى ترك الفتيا والتدريس لكي لا يختلط الحابل بالنابل .

وقسم السيوطي الذين تلقوا العلم على يده ثلاث طبقات، الأولى من اعترفـت بجهود السيوطي (كانت خيراً طرفاً، ديناً وفـضلاً وصـدقاً وعزمـاً، فحياهـا ا وبياها)[3].

أما الطبقة الثانية: هي التي لا تعترف بفضلهِ عليها (تعـرف وتنكـر، تـذم وتشكر، وهذه يحمل أمرها ويروج سعرها ويخفف أمرها)[4].

أما الطبقة الثالثة: هي الأشد عدائية وطغياناً (ا أكبر ما أكثر شـرها وأكبـر شرها وواشد إمرها وأنكر أمرها وأعظم إمرها أقوى فجورها ...وبهتانها وزورهـا ... ليست للعلم ولا للحلم بإهل)[5] ويتوقع ظهور طبقة رابعة أكثر فجـورا وبأسـاً

---

1 السيوطي، شرح المقامات، المقامة االلؤلؤية

2 السيوطي، شرح المقامات: ج2، ص 999

3 السيوطي، شرح المقامات: ج 2، ص 1001

4 السيوطي، شرح المقامات: ج 2، ص 1001 ـ 1002

5 السيوطي، شرح المقامات : ج 2 ، ص 1002

وعدئية وقد يكون هذا الكبر دواعي ترك الإفتاء والتدريس (أن يأتي بعد هؤلاء حثالةُ الرجال، وفراخُ يأجوج ومأجوج والدجال) [1]

ويشير أيضاً إلى قدرتهِ على تمييز الأصدقاء، فمنهم من يكون ذا بهرجةٍ دون قيمة لا خير فيه، ومنهم من يشك فيه لا يعرف أهو معك أم عليك ومنهم الـصاحب الذي لا يمكن أن تتخلى عنه ويصف السيوطي الفُتيا التـي (طبقـت الأرض شـرقاً وغرباً وعجماً وعرباً)[2] واصفاً هذه الفُتيا بأنها، تفتح كل مقفل، وتوضح كل مشكل، وتوزيل كل مجهلة أما أسلوبه في الفُتيا:

1 ـ الغوص في العلوم والبحث عن القضايا الهامة، والاطلاع على نقـول الأئمـة الكثير وإظهار ما لم يعرفه الناس وإزالة الإبهام واستخراجها (أغوص البحـار على الجواهِر، وأفحص عن نُقول الأئمةِ الجماهِير، ولتتبّع ما خَفِي على الناسِ، وأزيلُ كُلّ إيهامٍ وإلباس واحشد النقُول، وأحشُر كـل قـولٍ، واصـدع بـأحق وأصولُ، وأفوقُ الأسنةَ والنصول..) [3]

واستمر بالحديث عن نفسهِ وقدرته على مواجهة المشكلات وفـساد مـدعي العلم وفساد علومهم، وصفاتهم ومن هذه الصفات رافضهِ كل ما هو جديد من العلوم بحجة عدم سماعهِ سابقاً، وفساد علوم الشريعة واهتمامهم بالمظاهر وفساد أنفـسهم، وعدم القدرة على تحقيق مطالبهم، وعدم الخوض في مساءل العلوم وأشار إلى وجود علماء المظاهر الذين يتقربون للأمراء وانصرف جل اهتمامهم إلى المظاهر (..... اجِدهم أن طَولَ كُمه وكبر العِمةَ وسرح لحيتَه وحسن هيئتَه، ثم حفَظَ دستَ فجـورٍ ليكابر وتردد إلى الأمراءِ والأكبارِ) [4] وتصديهم لتدريس والفُتيا وهم براءةُ من ذلك جزاء وتوبيخ للجهلة الهجر والابتعاد عنهم ومحوا أسمائهم من سـجلات العلمـاء، وإبعادهم عن الحصول على ما يريدون إذا سألوا وأرادوا الإجابة وهذا النـوع مـن العقاب الذي استخدم معهم كما استخدم معهم العلماء.

---

1 السيوطي، شرح المقامات: ج2، ص 1002

2 السيوطي، المقامات: ج 2، ص 1003

3 السيوطي، المقامات: ج 2، ص1003 ـ 1004

4 السيوطي، شرح المقامات: ج 2، ص 1014

وفي حال وقوع مشاكل تُحضر هذه المشاكل وتوجه إلى من هو محسن لها، ولديهِ ميولٌ إلى حلها، وعمل على إرجاع الإثم على من سمح لهؤلاء الجهلـة بـأن يخوضوا في مسائل العلم ويجيبون عليها، (فأثم تَخلِفي عن الجوابِ وتَركـي لِإبانـةِ الصوابِ على من فَتح هذا الباب، وكان ذلك أحد الأسبابِ) [1]

والختام أشار إلى وعي المجتمع وحموتهِ وقيامهِ من تحت نير الجهل السائل في ذلك الوقت وأخذ كل ذي حقٍ حقه (قد تدبرتُ المصالِحَ، واقتديتُ فـي التـرك والعزولة بالسلفِ الصالح، وانتظرتُ رحمة ا ـِ وهي قَريب، وعدلتُ عن طريقةِ من هو في شكٌ من ذلك مريبٍ، وأضربتُ عن أسلوب لا أرضأه وأن قـلّ فـي ذلـك الضريب، وكررتُ على سمعي ذكر حبيبٍ مِن حـديث: (كُـن فـي الـدنيا كأنّـك غَريب)[2] وتحدث عن صحوت المجتمع وقيامهِ من تحت نير الجهل الشائع في ذلك الوقت وأخذ كل ذي حقٍ حقهُ ودعا إلى صبر العالم (وأتوا مالا عـين رأت ولا ُأذن سمِعتْ ولا خَطَر على قلبٍ بشرٍ بالإمرار) [3]

1 السيوطي، شرح المقامات : ج 2 ، ص 1014

2 السيوطي، شرح المقامات : ج 2 ، ص 1064

3 السيوطي، شرح المقامات : ج 2 ، ص 1084

الخاتمة:

لا نستطيع أن ننكر الصورة التي قدمتها لنا المقامات عن المجتمع المملوكي ،بأنها واضحة ودقيقة، إلا أنها ركزت على الجانب العلمي أكثر منه على الجوانب الأخرى، وهذا يدل على مدى إهتمام السيوطي بالجانب العلمي في حياتهِ، مشيراً بذلك لدقائق الأمور التي تتعلق بالجانب العلمي.

ومن ابرز النتائج التي استخلصناها من هذه الدراسة، أن عامل الخصومات كان الشرارة الأولى والمحرك الأقوى في سير العملية العلميةِ في المجتمع المملوكي على الرغم من وجود عوامل تدعم هذه العملية، ونستطيع القول أيضاً: إنه إذا استطاع بعض الأدباء أن يصوروا عصورهم أو مجتمعاتهم في موضوعات أدبهم فإن السيوطي صور مجتمعه بإسلوب من يرسم لوحةً بألوان ذاكراً فيها كل التفاصيل هذا ما يخص المقامات وما لها من دور عميق في إبراز صورة الحياة العلمية.

حيث اتضح لنا رقي المجتمع المملوكي علمياً وفكرياً مزيلاً كل الشبهات حول إنحطاط هذا العصر وتخلفه مثبتاً لنا قدرت هذا المجتمع على تجاوز الصعوبات بالعلم. وهذا يدل على وعي السلطة الحاكمة وأصحاب الطبقات العليا لقيمه العلم، الكامنةِ في تسجيل مآثر الأمة من أحداث تاريخيةٍ وسياسيةٍ وأمور اجتماعيةٍ حياتيةٍ هامه

المراجع

ابن إياس، محمد بن أحمد (ت930)(1963): **بدائع الزهور فـي وقـائع الـدهور،** تحقيق محمد مصطفى، ط2، دار إحياء التراث- القاهرة .

ابن جماعة، محمد بن ابراهيم(1353): **تذكرة السامع والمتكلم،** جمعية دار المعارف العثمانية، د.ط .

ابن خلدون، عبد الرحمن(1998م): **تاريخ ابن خلدون مع المقدمة،** ضبط وحواشي خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر ـ بيروت، ط2.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي الأنصاري (ت 711هـ ـ)(2003م): **لـسان العرب،** دار الكتب العلمية - بيروت.

ابن هنيل، **(د.ت) حلية الفرسان،** ن م.

الأزهري، أبي منصور محمد بن أحمد (ت370)(2001): **تهذيب اللغـة،** تحقيـق: رياض زكي قاسم، دار المعرفة ـ بيروت، ط1.

باشا، عمر(1989): **تاريخ الأدب العربي (العصر المملوكي)**، دار الفكر المعاصر – بيروت ط1.

بردي، ابن تغري (ت 874)(1963): **النجوم الزاهرة في ملوك مـصر والقـاهرة،** القاهرة.

البرمكي، ابن خلكان (681)(1972م): **وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان،** تحقيـق إحسان عباس.

جامعه القدس المفتوحة(1995): **منشورات تاريخ الأدب العربي.**

الجزائري، أبو بكر جابر(1396هـ ـ 1976م): **منهاج المسلم،** دار الفكر ط8.

الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت393هـ)(1990): **الصحاح تاج اللغة وصـحاح العربية،** تحقيق: أحمد عبد الغفور، دار العرب للملايين_بيروت، ط4.

حسن علي إبراهيم(د. ت): **تاريخ المماليك البحرية،** مكتبـة النهـضة المـصرية ـ القاهرة.

الحسين، قصي(1990): **الأدب العربي في العصرين المملوكي والعثماني**، المؤسسة الحديثة للكتاب ـ لبنان، 2006م العرب للملايين ـ بيروت، ط4.

حمودة، محمود عباس(1980م): **المدخل الى دراسة الوثائق العربيـة**، دار الثقافـة للطباعة والنشر- القاهرة.

الحموي، ياقوت (ت 626)(1979م): **معجم البلدان في معرفة المـدن والقـرى والخراب والعمارة والسهل والوعر في كل مكان** ـ بيروت.

الدروبي، سمير(2005): **ظاهرة التعدد والكثرة في مؤلفات السيوطي**، جمعية عمال المطابع التعاونية ـ عمان ، ط1.

الزبيدي، محمد بن عبد الرازق الحسيني (ت 1205هـ)(د.ت): **تاج العروس مـن جواهر القاموس**، دار صادرـ بيروت

زكريا، إبراهيم(1967): **ابن حزم الأندلسي**، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

زيدان، جرجي(د.ت): **تاريخ التمدن الإسلامي**، دار مكتبه الحياة – بيروت، م2.

السبكي، عبد الوهاب بن علي(1986): **معيد النعم ومبيد الـنقم**، مؤسـسة الكتـب الثقافية، بيروت، ط1.

سلام، محمد زغلول(د. ت): **الأدب في العـصر المملـوكي**، منـشأة المعـارف- الإسكندرية.

السيوطي، جلال الدين (ت 911)(1989م): **شرح مقامات جلال الدين الـسيوطي**، تحقيق سمير الدروبي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط1.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت911)(1967م): **حسن المحاظرة في أخبار مصر والقاهرة** تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية- القاهرة ، ط1.

الشكعة، مصطفى(1994م): **جلال الدين السيوطي**، الـدار المـصرية اللبنانيـة ـ القاهرة.

الشلبي، أحمد(1985م): **مقارنة الأديان (الإسلام)**، مكتبة النهضة المصرية- القاهرة، ط1.

الشلبي، أحمد(1986م): **موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية**، مكتبـة النهضة المصرية ـ القاهرة ، ط 7، م15

الشلبي، احمد(1999): **التربية والتعليم في الفكر الإسلامي**، مكتبة النهضة العربيـة المصرية ـ القاهرة ، ط 11.

الشيبة، مصطفى عبدالغني(1982م): **موفق الإسلام من الرق**، منـشورات جامعـة سبها.

الصاحب بن عباد، إسماعيل بن العباس أبو القاسم (ت385هـ)(1994م): **المحـيط في اللغة**، تحقيق محمد حسن آل ياسين ، عالم الكتب ـ بيروت ، ط1،ج6

الصديق، حسن(2000م): **المناظرة في الأدب العربي الإسلامي**، المصرية العالمية- مصر، ط 1.

ضومط، أنطوان خليل(1982م): **الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتـصادي والعسكري (1290ـ 1422)**، دار الحراثه- بيروت ط2.

طاش كبرى زادة (1982م): **رسـالة آداب البحـث وشـرحها**. بسلـسة نفـائس المخطوطات رقم4. دار المعارف- بغداد ، 1955- بيروت ط2.

عاشور، سعيد(1962): **المجتمع المصري في عـصر الـسلاطين المماليـك**، دار النهضة العربية- القاهرة، ط1.

عاشور، سعيد(1976م): **العصر المملوكي فـي مـصر**، دار النهـضة العربيـة- القاهرة، ط2.

العبادي، أحمد(د. ت): **قيام دولة المماليك الأولـى**، مؤسـسة شـباب الجامعـة- الإسكندرية.

عباس، أحسان(1998): **تاريخ بلاد الشام في عصر المماليـك**، منـشورات لجنـه التاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية- جامعة اليرموك – عمان،

العدوان، أحمد محمد(1985م): **العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي**، دار عالم الكتب الرياض

الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت 177هـ) (د. ت): **كتاب العين**

ماجد عبد المنعم(1978م): **طومان باي أخر سلاطين المماليك في مـصر**- مكتبـة الأنجلو المصرية.

متز، آدم(د. ت): **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، ترجمة محمد أبـو ريدة، فهرسه رفعت البد راوي، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط 5، م 1.

المقرى التلسماني، احمد(1996م): **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، شـرح مريم الطويل ، يوسف الطويل، دار الكتب العلمية - بيروت، ط 1.

المقريزي، تقي الدين العباس أحمد بن علي (ت 845 هـ) (د. ت): **السلوك لمعرفه دول الملوك**.

النووي، زكريا بن يحيى(1987): **آدب العالم والمتعلم**، مكتبة الـصحابة- طنطـا، ط1.

الملحق (أ)

مقتطفات توضيحية حول بعض المقامات

المقامة البحرية

وصف حال العباد والبلاد في حال الشدة والرخاء إذ كرس الناس أوقاتهم في الدعاء والاستغاثة با عز وجل والدعاء والابتهال له؛ إذ أصبحوا في الضيق المضني الذي جعلهم لا يستطيعون تحصيل ما يريدون إلا بعد مشقه وذلك لارتفاع الأسعار وخلو البلاد من أنواع الحبوب كالحنطة وانتشار الاحتكار مما دفعهم إلى بذل ما لديهم من أموال في سبيل الحصول على حفنةٍ من القمح لسد الحاجة (وصف لحالة الشدة والعوز ونتائجها)

وهذا الأمر لم يواجه العامة فقط بل جعل السيوطي لعلماء الأمة دوراً بارزاً في الدعوة لتخطي هذه الأزمة من كل أنواع العلوم والفنون سواء أكانت دينية أم لغوية ....الخ

المقرى : هل هو قارئ القرآن ؟

إذ يتحدث لنا عن تأرجح الحياة العلمية وفقاً للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية أو السياسية أي التحول من - - إلى وقد يكون السيوطي قد أشار على لسانهِ إلى الحديث عن رواية الحديث وأنه أصبح ميدان يروي فيهِ من يشاء من سلسلة الرواة غير الُثقاة

المحدث: راوي الحديث.

وأشار السيوطي هنا على لسان المحدث لعلم الحديث لعلم الحديث أو روايتهِ، وخاصةً ما يتعلق بسلسلة الرواة رواية الحديث الموضوع

الفقية: وفي ظاهر حديثهِ يتحدث عن أوضاع العامة قبل وبعد فيضان النيل، وقد يشير السيوطي هنا إلى رواية الحديث وطريقتها سابقاً وفي عصره.

الفَرضي: عالم يبحث عن كيفية توزيع الميراث للميت يمكن أن يعد من علماء الرياضيات لما له من دور في تقسيم الميراث .

ظاهر حديثهِ هنا هو الحديث عن الأوضاع الراهنة في المجتمع المصري، ولكن الحديث المقصود كما أشار اليهِ السيوطي هو الحديث عن رواية الحديث إذ أصبح كل راوٍ يروي ما يناسبه من روايات للحديث، هذا ما أدى إلى نتائج عديدة في علم الحديث سلبية وهي:

1 ـ الإتيان بشيء لا يمكن الاهتداء بهِ أو الاستفادة منه (تنكرت المعاياء)

2_انتقاص حق الحديث من الرواة في إثبات صحته وقلتهم (وقـع العـول ونقـص الطول)

3_كثرت رواية الحديث الموضوع (وكثر القول)، وعدم الاستفادة منه(وقلّ القول)

4_إنتشار الكذب في الحديث (عِظم الهول فلا حول)

الاصولي: نسبة إلى العالم بعلم أصول الدين،ويشير السيوطي إلى كثـرة الأحاديـث الموضوة التي جعلت عالم الأصول في حيرةٍ من أمرة، بالتشريع في أمور الدين، إذ كان الحديث مفتاح فهم آيات القرآن ،لكنه أصبح الآن بعيد من الصحة قريـب مـن الشك .

الجدلي: أن القضية الظاهرية هي الاستغلال في حال ضيف الظروف، أما الباطنيـة هي إشارة إلى نقص معنى الحديث، لأنه موضوع ،وهذا يشر إلى نقص البرهان في حال وجود خطأ في مادته من حيث المعنى.

الصوفي: يمثل دور الناصح للناس والمرشد لهم أو بمعنى أدق المنذر والمرشد لـه دعوته تتجسد في إعادتهم إلى الدين والوعي التـام بـأموره الـصغيرة والكبيـرة، والتخاف بالأخلاق الإلهية وابتعدتم عن الضرر وزال عنكم، ثم تحدث عن علم النحو الذي به تتضح معاني الكلام ومقاصده من خلال ضبط مفردات العبارات.

وفي ظاهر قوله في المقامة (وأصـبح النحـوي يلـتقطُ الحـب كأنـه ابـن عصفور...وضرب زيد عمراً) [1]في هذا النص يتحدث عن النحو بشكل عام وحشو هذا الكلام بالحديث عن قضية المجتمع المصري الفقر والعوز.

لكن باطن الكلام يوحي إلى معضلةٍ حدثت في المجتمع المصري، وهي تفشي الأحاديث الموضوعة أو الضعيفة، وهذا النص (المقامة) يناقشها من حيث الـضعف نحوياً ولغوياً واسنادياً/سلسلة الرواة .

التصريفي: في ظاهر قوله الحديث عن علم الصرف الذي يتبين من خـلال أوزان الأفعال، وباطن الحديث عن صعوبة تمييز الأحاديث الصحيحة، والموضوعة لقرب التشابه للنص.

اللغوي: يمثل دور الحكيم والناصح يقدم الحِكم والأمثال ودوره في هذه المقامة إيضاح الحديث وما يمر به من ظروف.

المعنوي: يتحدث عن مدى أهمية الأحاديث الموضوعية أو الضعيفة، وهل لها من فائدة، هل هي قادرة على إظهار شيء جديد من أمور الدين.

البياني: يتسائل أيضاً عن الأحاديث الموضوعة، هل يمكن أن تصل الى الناس كافة وهل سيكون لها دور في الشريعة في غير موضعهِ.

البديعي: يقول أن هذا الأمر غاية في الجرأة، يؤدي بخطبٍ جلل، يستوجب وضع قيود وحدود لهذه المسألة الخطيرة .

العروضي: يشير إلى مراتب الحديث ودرجاته، وسلسلة رواته.

الكاتب /المؤرخ: يشير إلى ضعف التأليف، والتوثيق في علم الحديث، وكثرة الوضع وعدم رجوع الرواة إلى ما صنف من مؤلفاتٍ فيها .

الطبيب: مهمته القضاء على المرض، وذلك باستخدام الدواء المناسب حسب المرض، هذا ظاهرياً، أما باطنياً هو القضاء على الأحاديث الموضوعة من خلال مقارنة الأحاديث الصحيحة، والموضوعة وبيان ما فيهل من زيادةٍ، ونقص هذا ما يجب ان يطبق على الناس من قوانين.

الملحق (ب)

مقامة الوباء

مقامة الوباء

وبعد الرجوع إلى كتاب حسن المحاضرة لجلال الـدين الـسيوطي، واضـع المقامات التي دارت حولها الدراسة، تبين لنا أن العام الذي تحدث عنه في المقامـة هو العام الوحيد الذي لم يذكره السيوطي في حسن المحاضرة بوصفهِ عام انتشر فيهِ الوباء، وذلك لغايةٍ ما ولا نعتقد بل نجزم بأن المقصود فيها هو الإشارة إلى وجود الفساد الأخلاقي، وفساد العلم يجعل العلم متماشياً مع الأحوال السائدة، بغض النظـر عن سوء المجتمع، مع متطلبات الحياة سواء سلبية أم ايجابية .

علوم ذلك العصر:

وكما علمنا إن العلم هو عماد كل دولة، لما لـه مـن علاقـةٍ وثيقـة بهـا وبسياستها، ولذلك فان تنوع العلوم هام جداً لنهوض مقومـات الحيـاة الـسياسية والاجتماعية والثقافية والدينية، هذا ما أدى إلى ظهور علـومٍ مختلفـة فـي شـتى الميادين، ومن هذه العلوم.

علم الأدب: المتمثل في علم اللغة والتصريف و النحو والمعاني......

وما حرفٌ قلبه اسم كريم واسم إذا صغر اختص بالتكريم وأي كلمةٍ هي اسـم وفعلٌ وحرف لم ينبه عليها احد من علماء النحو والصرف [(1)] وهذا كان ظاهراً في المقامة الأسيوطية ومن الكتب المتعلقة بهذه العلوم_ التي ذكرهـا الـسيوطي فـي مقاماته في ذلك العصر (التعليقه: لابن النحاس الحلبي). وكما نعلم إن الأدب بعامته والشعر بخاصته لا يتطور تطورا مفاجئا، بل يمر بتغيرات بطئيه تظهـر ملامحهـا واضحة بعد زمن قد يطول وليس سهلا أن نلحظ تطورا واضحا وهذه التغيرات هي مواكبه الشعر لأحداث تاريخيه وسياسيه، ومن الطبيعي أن يـستأنف الـشعر فـي العصر المملوكي تفاعله مع الأحداث وخاصةً حركه الجهاد دون اختلاف بين ملامح الشعر من مظامين وقيم وأفكار فنيه وأساليب شعرية [(2)].

العلوم الشرعية: كالتفسير والإفتاء على علم الحـديث " "واخرجـوا زكـاه فطركم، تبتهجوا بنماء قطركم، وهي صاع من قوت البلد على كل حر وجد، وعليه

---

1 السيوطي، شرح مقامات السيوطي 1/ 240

2 انظر: منشورات جامعه القدس المفتوحة: تاريخ الأدب العربي ، 416_227

ِفطرةُ عبيده وزوجه ووليده، والصاع:أربعه أمداد، والمد: رطلٌ وثلث برطل بغداد، ولا تجب زكاه على من لم يجد يملك فاضلاً عن قوت يومه، ولا يباع فيها مـسكن وعبد يحتاج إليه للخدمة ويلزم الكافر فطره المسلم ولا عكس» [1]

« كل نوع له في لحديث مجال كـالمؤتاف والمختلـف والمتفـق والمفتـرق والمقلوب والمتشابهِ وسائر الأنواع .

ولا بد من وجود شروط يتقيد بها كل من يخوض بعلم من هذه العلوم، مثال ذلك شروط رواية الحديث، كما بينها السيوطي، وهي قد تكـون خاصـةٍ بروايـة الحديث في ذلك العصر وغيره من العصور(فيروي الصحيح ويتجنـب الـسقيم)[2] ومن علمائه السخاوي والقرطبي «وقات بين الملا بالإعلان: ليس لـه أن يـروي حديثا حتى يصححه على مشايخ الحديث، من الآن هذا وأنا اعتقد انه وعظ نفسه قبل أن يعظ الناس وتهذب قبل أن يجلس مع الجلاس ونزع حب الرئاسة بغير الحق من قلبه والرأس »[3]

العلوم العلمية: طب فلك رياضيات وهذا ما اسـتنتج مـن خـلال مقامـات السيوطي وخير شاهد على علم الطب، وذلك مـا ورد فـي المقامـات التفاحيـة[4] والرياحين من خلال ذكر منافع طبية«كلوا الرمان بشحمهِ فانه دباغٌ للمعدة.....قـال الأطباء الحلو منه... ينفع من حميات الغب المتطاولة وألمها ومن الجرب والحكـة والخفقان ويقوي الصدر يجلو الفؤاد»[5]

وورد بهذا العلم « لها في كتب الطب نصوص وهذا قد أعيا الأطباء واعترف بالعجز عن مداواتهِ الألباب» ولكن وجود المستشفيات والمـدارس الطبيـة وتـوافر الأطباء لكي يقض على دور العرافين والمنجمين والضاربين بالرمل وضل كثير من الناس يلجأون إلى هؤلاء، ولم يكن الرجوع إليها قاصرا على الفقراء، بل كان ذلـك

1 السيوطي: شرح المقامات السيوطي،1117/2

2 المصدر نفسه 380/1

3 المصدر نفسه 226/1

4 المصدر نفسه 869,868/2

5 السيوطي، شرح مقامات السيوطي 293/1

أمراً منتشراً بين ذوي اليسار وبين الحكام حتى إن الناصر محمد بن قلاوون أُصيب بإسهال قوي سنه 741ه فاستشار أطباءه، كما لجا إلى المنجمين والضاربين بالرمل، وقد انتشرت بين الحكام الأقداح السحرية وكؤوس السم في القرنين السادس والسابع.

أما علم الاقتصاد المتعلق بشؤون الدولة المالية من أموال ومحاصـيل وغيرهـا «هذه براعـة استهلال، تؤذن بالإقلال، وتشعر بوضـع الأغـلال علـى مخـازن الغِلال» [1]

« وهذا سؤال أرسله إلي بالأمس عالمان من علماء مذهبك منصبهما في العلم أعلى من منصبك يسألاني عن تحرير الدراهم النقرة ويطلبان أن أولف فـي ذلـك مؤلفاً ينشر مطوية وطوى نشره»[2]

وعلم الرياضيات « بان الروضة منها كمركز الـدائرة فهـي لهـا كالقطـب والأساس»[3]

علم الفلك « انكسف بدره الطالع بما رقم أمواجه طالعه فـي بـرج الـسنبلة والحوت للمشتري سعيد وهو يوم الزينة وما أدراك»[4]

واستطعنا الاستدلال على وجود هذه العلوم في ذلك العصر من خلال ما أورده السيوطي من مصطلحات داله على هذه العلوم وما أورده من كتب كالقـانون فـي الطب لابن سينا ومن ابرز علماء الحساب بدر الدين القيمر.

وأورد إحسان عباس في كتابه تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك موجزاً عن علوم العصر المملوكي عن القلقشندي احد أعلام ذلك العصر،وتحدث عـن سـبعه أصناف للعلم أو أصول يتفرع عنها أربعه وخمسون علماً متمثله في:-

أولاً: علم الأدب من نحو وصرف ومعاني .... وغيرها

ثانيا: العلم الطبيعي (بيطره، فراسة)

ثالثا: علم الهندسة

---

1 السيوطي، شرح مقامات السيوطي 348,347/1

2 السيوطي: شرح المقامات السيوطي 401/1

3 نفس المصدر 272/1

4 نفس المصدر 289/1

رابعا: علم الهيئة

خامسا: علم العدد

سادسا: العلوم العلمية

سابعا: العلوم الشرعية[1]

ومن خلال ما تقدم تبين لنا أن العلوم خاض بها علماء المماليك علوم متفرقـة ومتنوعة في شتى الميادين من علوم شرعيه وأدبيه وعلميه .

1 انظر، عباس تاريخ بلاد الشام، ص 172

الملحق (ج)

دور الظروف الحياتية في تطور المصطلح العربي

دور الظروف الحياتية في تطور المصطلح العربي

وددت الحديث عن المجتمع المملوكي بدولتيه من مقوماتٍ سياسيهٍ واقتـصاديه واجتماعية ودينيةٍ وجغرافية، لكنني وجدت أن المصادر التي عدتُ إليها قد تناولـت هذه الأركان بالدراسة المستفيضة ولذلك فضلتُ التركيز على كلمة (مماليك) بكل ما تحمله من معان لغويةٍ واصطلاحيةٍ وتاريخيةٍ، وقبل البدء بالحديث عن كنـه هـذا المصطلح تاريخيا، لا بد من الحديث عنه لغوياً واصطلاحياً .

ولتصدي لمعنى المماليك أو مملوك، يجدر بنا الرجوع إلى أمهـات المعـاجم العربية، التي لوحظ أنها تشترك في بيان دلالة (مملوك) ومن اجل ذلك نورد في هذا السياق بعضاً من مدلولات (ملَك) وخاصةً ما يتعلق بتسمية هذه الطائفة من الرقيـق بهذا الاسم (مماليك).

وذكر كلٍ من الخليل بـن احمـد الفراهيـدي (ت177هـ ـ -793مـ ـ) [1] والأزهري (ت 370هـ -980م) [2] الصاحب بـن عبـاد(385هـ ـ -995م) [3] وإسماعيل بن حماد الجوهري (ت993هـ -1003م) [4] وابن منظـور المـصري (ت711هـ -1311م) [5]:

إن المِلْك: ما ملكت اليد من مالٍ وخولٍ، والمملكة :سلطان المِلك في رعيتـه، ويقال طالب مملكته وعظم ملكه وكبر. والممُلْك: العبد والجمع مماليك وقـد نعـت بالملوكةِ والملَكةِ والمِلْكِ، ويقال هم عبيد مملَكة وهو أن يغلب عليهم فيستبعدون وهم

---

1 الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت 177هـ) : كتاب العين ، مادة (الملك).

2 الأزهري، أبي منصور محمد بن أحمد (ت370): تهذيب اللغة، تحقيق: رياض زكي قاسـم، دار المعرفة ـ بيروت، ط1، 2001، م4، ص3449 ـ 3451.

3 الصاحب بن عباد، إسماعيل بن العباس أبو القاسم (ت385هـ): المحيط في اللغة، تحقيـق محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب ـ بيروت، ط1، 1994م،ج6 ، ص274 ، 275 .

4 الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت393هـ): الصحاح تاج اللغة وصحاح العربيـة، تحقيـق: أحمد عبد الغفور، دار العرب للملايـين ـ بيـروت ، ط4، 1990، ج4، ص1609ـ ـ 1612.

5 ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي الأنصاري (ت 711هـ) : لـسان العـرب ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، 2003م ، م10 ، ص 594 ـ 600 / مادة (ملك) .

أحرار، وقال أبو عبيد الكسائي: يقال هذا عبد مملكة ومملةِ جميعاً، وهو الذي سـبي ولم يملك أبواه، والعبد القن الذي مِلك هو وأبواه .

أما الزبيدي (ت1205هـ - 1790م) [1] قال: إن الملك ضربان: هو التملـك والتولي وملك هو القوه على ذلك تولى أو لم يتولى، فمن الأول قولهِ عـز وجـل: ﴿إن المُلُوك إِذَا دخَلُوا قَريةً أَفْسدوها﴾ * ومن الثاني قولهِ تعالى : ﴿إِذْ جعـلَ فِـيكُم أَنبِياء وجعلَكُم ملُوكًا﴾ **، فجعل النبوة مخصوصةً والملك فيهم عاماً ، فان الملك هنا هو القوه التي يتَشرح بها السياسة لأنه جعلهم كلهم متولي للأمر فذلك منافٍ للحكمه كما في كثرة الرؤساء .

وتجاوزاً لما أثبتته المعاجم العربية لمفهوم (ملك) لغةً إلى كتـب التـراث ولا سيما كتب التاريخ والأدب إذ نجد عنايةً واضحةً في فهم هذا المصطلح ومالـه مـن دورٍ في الأسفار عن حقيقة هذه الفئة.

إذ لم يلبث"هذا اللفظ أن اتخذ معناً اصطلاحياً خاصـاً بالتـاريخ الإسـلامي، فأصبح يقصد بالمماليك – جموع الرقيق الأبـيض الـذين يجلبـونهم إلـى الـبلاد الإسلامية- حيث يطلبون أثمانا مرتفعه لبضاعتهم"[2] .

وفي البداية نشير إلى المقريزي (ت 845هـ) حيث علق على هذه التـسمية المماليك إذ قال "يدل اسمهم على أنهم أرقاء مملوكين، ينتمون إلى أجناس مختلفة، إذ جئ بهم من أسواق النخاسةِ بالقوقاز، وآسيا الصغرى، وشواطئ البحر الأسود ،وتم

---

1 الزبيدي، محمد بن عبد الرازق الحسيني (ت 1205هـ): تاج العروس من جواهر القـاموس، دار صادر- بيروت، ج7، ص108.

* سورة النمل : آية 34 .

** سورة المائدة : آيه 20 .

2 عاشور، سعيد :العصر المملوكي في مصر، دار النهضة العربية - القـاهرة ، ط2، 1976م، ص21 .

نقلهم إلى مصر عبر بحر القلزم فخليج القسطنطينية، ومنه إلـى البحـر الأبـيض المتوسط فميناء الإسكندرية، أو دمياط"[1].

وأشار أبو بكر جابر الجزائري في كتابهِ منهاج المسلم أن الرق "هو الملـك والعبودية، والرقيق هو العبد المملوك مأخوذ من الرقة ضد الغلاظة، لأن العبد يـرقً لسيده ويلين ولا يغْلُظ عليه بحكم الملكية التي له عليه "[2].

أما سعيد عاشور وصفهم " المملوك وجمعه مماليك اسم مفعول مـشتق مـن الفعل العربي((ملك)) ويقال عبد مملكه بفتح إلام وضعها إذا سبي دون أبويه ويبدو إن هذا المعنى مأخوذ من القرآن الكريم حيث وردت عبارات "وما ملكت أَيمانٌهم"،"ما ملَكَتْ أَيمنُهن"، أكثر من مرة ""[3].

وأضاف أنور زقلمه " كلمة المملوك " هي إسم مفعول من ملك وهـو ظـاهر المعنى لا يحتاج إلى إيضاح "[4].

أما عبد المنعم ماجد "كلمة المملوك في أصلها اللغوي، مستخرجه من الفعـل ملك، لتعني الرقيق الذي يشترى، بقصد تربيتهِ، والاستعانةَ به كجند وحكـام علـى عكس لفظة "العبيد" مفرد عبد، ومؤنثها جاريه التي استعملت في العصر الإسـلامي الأول، وذلك لان الإسلام بميولهِ الإنسانية كان يرفع شأن الرقيق، إذ لفظـة العبيـد تعني العبودية، والعبد يولد من الرقيق بينما المملوك يولد من أبوين حرين ويبـاع، كما أن العبد قد يعني إنسانا اسود بينما المملوك كان غالباً ابيض"[5]

أما محمود حمودة أشار إلى مفهوم المماليك بقولهِ بأنهم "عبارة عن طائفة مـن الأرقاء المشْتَرين بالمال. ثم كثُر عددهم وحكموا قُطراً كمصر. ووضعوا أيديهم على

---

1 لمقريزي، تقي الدين العباس أحمد بن علي (ت 845 هـ): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط وأثار، مطبعة مدبولي ـ القاهرة، 1999م، ج2، ص 216.

2 االجزائري، أبو بكر جابر: منهاج المسلم، دار الفكر ط8، 1396هـ ـ 1976م، ص469.

3 عاشور: العصر المماليكي مصر والشام ص1.

4 عاشور، العصر المماليكي مصر والشام ص1.

5 ماجد عبد المنعم: طومان باي أخر سلاطين المماليك في مصر ـ مكتبة الأنجلو المـصرية، 1978م، ص12.

بلاد أخرى خارج هذا القُطر، واحتفظوا أثناء حكمهم لمصر بشخصيتهم ولم يختلطوا بأي عنصر من عناصر السكان المصرية "[1].

أما احمد الشلبي عرفهم ب" مماليك جمع مملوك وهو شخص اُشتري بالمال "[2].

وخلاصة ذلك أن المماليك كما أشارت المصادر السابقة هم مجموعه من الرقيـق الأبيض من جنسيات مختلفة، جعلوا لهم كياناً خاصاً بهم في بلاد غربيه اسـتطاعوا إن يرسموا فيها خارطةَ بلادهم بجهودهم الشرعية أو الغير شرعية .

ولكن الملاحظ على هذه المفاهيم أنها صبت جام تركيزها جذر الكلمه والحـديث المختصر عن هوية المماليك دون البحث عن أصل هذه الكلمة وحقيقتها التي تحتاج إلى وقت وجهد من أجل الوصول إلى الحقيقة هذ المصطلح من أين جـاء أو متـى ظهر لأنه في كلا الحالتين ينم عن تطور ثقافي معرفي في أجنـدة مفـردات اللغـة العربية. ولدخول لأسوار هذه الحقيقة لبد لنا من دراسة العوامل التي أدت إلى هـذا المسمى الجديد كحداثة العصر وامتزاج الشعوب بالنقص . . . . الخ، من العوامـل الداعمة لهذا الأمر، ولكن قبل كل ذلك علينا القيا م بدراسة أسباب الرق التـي أدت إلى ظهور ما يعرف بالرقيق الأبيض أو الرق الـصناعي، وذكـرت المـصادر أن أسباب الرق تعددت وتنوعت على مر العصور لتنوع الدوافع لإيجادها غير أن هذه الأسباب منها ما هو قصير الأجل ومنها طويل الأجل وهذه الأجلية جاءت بمجـيء الإسلام الذي نظم الحياة البشرية بكل مقوماتها وبدايـةً سـوف نطـرق الأسـباب المدحوضة التي دحضها الإسلام .

وهذه الأسباب كانت مدعومة من قِبل ظروف أدت إلى ظهورها، وتمثلت هذه الظروف بظروف طبيعية وأخرى وضعيه من وضع البشر، أدت إلى تبلـور هـذه الأسباب في الماضي واستمرار بعضها إلى عـصورٍ متقدمـة ولاسـيما العـصر المملوكي محور الدراسة.

---

1 حمودة، محمود عباس: المدخل الى دراسة الوثائق العربية، دار الثقافة للطباعـة والنـشر، القاهرة، 1980م، ص 188.

2 الشلبي، أحمد: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة المـصرية – القاهرة، ط 7، 1986م، م15، ج5، ص 215.

إذا كان لقسوة المناخ دور كبير في رحيل بعض القبائل وتشتتها فـي بلـدان مختلفة مرافقاً هذا التشتت الفقر والعوز والرغبةُ في الثراء والجاه الذي أجبر بعض الأهالي على بيع أبنائهم[1] ، ولكن هناك أسباب أخـرى عديـدة كالوبـاء الأسـود (الطاعون) في حوض البحر المتوسط جعل الأهالي يبيعون أبنائهم حمايةً لهـم مـن الموت المحقق. [2]

إضافة إلى ذلك ظهر الرق بسبب السرقات، وغيرها من الجرائم التي كان يعاقب عليها بجعل مرتكبيها رقاً أو تقديم بديل عن مرتكبيها ليكون رقاً عنه وهذا ما يعرف برق الخطيئة المتمثل في استرقاق إنسان لأجل إنسان، لكن عدالة ا التي جـسدها الإسلام نادى بأن كلُ نفس بما كسبت رهينة، قال تعالى: ((ولَا تَكْسِب كُل نَفْـسٍ إلا علَيها ولَا تَزِر وزارة وِزر أُخْرى))*، وكذلك حرم رق الاسـتيلاء والقرصـنة أي استعباد الحر بأي طريقة كانت وهذا ما أكد عليه الرسول صلى ا عليـه وسـلم: "ثلاثةٌ أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته، رجلاً أعطى بي ثم غـدر رجلاً ورجلاً باع حراً ثم أكل ثمنه، ورجلاً استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطـهِ أجره"** أما إذا كان سداداً لدين فقد نهى الإسلام عن هذا الأمر وذلك بتأجيل الـدين لأجل مسمى، لقوله تعالى: (وإِن كَان ذو عسرةٍ فَنَظِرةٌ إِلَى حين ميسرةٍ)*** [3].

---

1 الحموي، ياقوت (ت 626): معجم البلدان في معرفة المدن والقـرى والخـراب والعمـارة والسهل والوعر في كل مكان - بيـروت 1979م، ج 2، ص 519، شـبارو، عـصام: السلاطين في المشرق العربي معالم دورهم السياسي والحضاري، دار النهـضة العربيـة، بيروت، 1994، ص 207 .

2 ضومط، أنطوان خليل: الدولة المماوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعـسكري (1290/ 1422)، دار الحراثه، بيروت ط2، 1982م ، ص25. العدوان، أحمد محمـد: العـسكرية الإسلامية في العصر المماوكي، دار عالم الكتب، الرياض، 1985م، ص 18.

* سورة الأنعام: أيه 164

**رواه البخاري وإبن داوود

***سورة البقرة : آية 28

3 أُنظر الشيبة، مصطفى عبدالغني: موفق الإسلام من الرق، منشورات جامعة سـبها، 1982م، ص65ـ67

أما الطبقية أو نظام الطبقية في الهند القائم على طبقتين الـ شوارد (العبيـ د) والبراهمة الأسياد وكل ما يملك الشوارد فهو فيه حق للبراهمة، وأما الفرس أوجدوا ما يعرف بنظرية الحق الإلهي، المتمثلة بنظرة المملوك لأنفسهم، وعلّيه الناس، بأن دم من دم الآلهة يجري في عروقهم وما دون ذلك فهم عبيد [1]

أما نظرة الإسلام لهذه الأسباب السابقة الذكر فقد أصدرت حكمـاً بإلغائهـا والقضاء عليها لأنها تعد مرضاً متفشياً في جسد البشرية.

" فما أضلّ الناس شيء كحب المال الذي فُرقت من أجله الأديان وهجرت بسببهِ الأولاد والإخوان" [2].

أما الأسباب طويلة الأجل الحرب، إذ أباح الإسلام الاسترقاق بسبب الحرب، ولكن ليست كل حرب تصلح لذلك، وإنما الرب الجائزةُ شرعاً، التي يشترط فيها أن يكون أحد الطرفين من المسلمين[3] والحرب دور بارز في انتشار الرق إذ كان الرق هم نواة الجيش المملوكي الذين جلبوا من تلك الحروب الطاحنةِ التي شنها المغـول على جيرانهم ولا سيما القفجـاق فقتلـوهم وسـلبوهم ذريـاتهم، فجلـبهم التجـار وباعوهم[4]، واستخدموا للخدمةِ في الميادين التي تهم الدولة، وتقديمهم كهدايا تقـدم للسلطان، أو دفعهم كضريبةٍ أو جزية[5]

وبعد هذا الاسترسال الموجز في أسباب الرق لابد مـن الإشـارة إلـى دور الإسلام إتجاة الرق وكيف حاربه إذ وجد له عـدة طـرق تجـسدت فـي النهـب، والمقامرة، السطو، القرصنة، وسداد الدين والحرب، والطبقية، لكن الإسـلام عمـل

---

1 الشلبي، أحمد: مقارنة الأديان (الإسلام)، مكتبة النهضة المصرية ـ القـاهرة، ط1، 1985م، ج2، ص 227.

2 السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت911): حسن المحاضر في أخبار مـصر والقـاهرة تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة، ط1، 1967م ،ج2، ص 12.

3 أنظر شبيه: موفق الإسلام من الرق، ص 151.

4 ابن هنيل، حلية الفرسان، ن م، ص 26. نقلاً عن العدوان: العسكرية الإسلامية في العـصر المملوكي ص 18.

5 العدوان: العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي ص 18.

على تضييق هذه المداخل بإيجاد مخارج لها كالكفارات وتبـادل الأسـرى والفـداء والمن[1]، ولم يبقى منها إلا مدخلاً واحداً ضيقه الإسلام حتى لم يعد ينفذ منـه إلـى الرق إلا القليل النادر، وهذا السبب هو الحرب المشروعة مع الكفار، قـال تعـالى: ((فَإِذَا لَقِيتُم الَذِين كَفَروا فَضرب الرقَابِ حتى إِذآ أَثْخَنْتُموهم فَشُدوا الوثَاقَ فَإما منـا بعد وإِما فِدآء حتى تَضع الحرب أَوزارها ذَلِك ولَو يشَآء الله لانْتَصر مِـنْهم ولَكِـن ليبلُوا بعضكُم بِبعض .....))*

ويتمثل المبدأ العام في شأن مصير الأسرى في الإسلام إما بالمن أو الفداء.

أما العوامل التي أدت إلى تطور مفهوم مماليك ووصوله إلى هذه الصورة من حيث انتقائه كاسم يطلق على مسمى له خصائص ومميزات أنفرد بها، وهذا ما نـود الوصول إليه من خلال الإجابة على عدتْ تساؤلات حول هذا اللفظ .

أولاً: هل كلمة مماليك أُطلقت على من جيء بهم من أماكن محددة في العالم ؟ أم أنها اختلفت باختلاف العصر ؟

كما نعلم أن العصر المملوكي شُرعت أبوابه من عام 648هـ، عندما أغلقت الدولة الأيوبية أبوابها، إلى أن أُغلق بابها عام 923هـ بقدوم الدولة العثمانية، وفي هذه السنوات حدثت تغيرات كثيرة على صفحة البلاد العربية الإسلامية، ومن هـذه التغيرات والتي تهمنا في هذه الجزئية من البحث هو جلب المماليك. حيـث يجلـب المماليك من خارج البلاد السلامية، من أماكن مختلفـة ومحـددة فـي آنٍ معـاً، إذ اجتمعت المصادر على ذكر جنسياتهم المتنوعة بتنوع أماكن جلبهم. جلب المماليـك من أماكن متفرقة من العالم تمثلت هذه الأماكن بشبة جزيرة القِرم، وبـلاد القوقـاز والقفجاق، من بلاد ما وراء النهر، وآسيا الصغرى، وفارس وتركستان وجنوب بحر

---

1 شلبي: مقارنة الأديان الإسلام، ج 3، ص 235

* سورة محمد: آية 4.

قزوين إذ شكلوا خليطاً من الأتراك والشراكسة والروم والروس والأكراد فضلاً عن عدد من مختلف البلاد الأوروبية[1]

هذا ما يخص المماليك أو ما يعرف بالرق الأبيض أو "ارستقراطية العبيد"[2]، أما العبيد فأن أماكن جلبهم تختلف عن الأماكن السالفة الذكر إذ كانوا يجلبـون مـن الجنوب عبر قوافل كانت تُسير من مصر وجنوب جزيرة العرب وشـمال أفريقيـة أكبر أسواق الرقيق الأسود [3]

وهذا يشير إلى وجود اختلاف بين المماليك والعبيد إذ جاء هذا الاختلاف من اختلاف أماكن الجلب لهم وألوانهم وعروقهم حتى في ملامحهـم الخلقيـة، وهـذه الاختلافات تفضي إلى وجود تمييز عنصري أو ما يعرف بالطبقية في أواسط الرق، إلا أن المماليك هم الطبقة العليا في مجتمع الرق، والعبيد هم العامة.

ويشير القلقشندي إلى أن السلطان والأمراء قاموا بتشكيل طبقه حاكمـه مغلقـه عن الشعب حددوا لها شروط العرق واللغة والتربية في الطباق والعتـق والتـدرج بالإمرة وأن يكون المنتمي لهذه الطبقة مولوداً خارج أراضي الدولة المملوكيـة أي في مناطق التي تزود دولة المماليك بالرقيق الضروري لاستمرار الدولة وخاصـةً من السهول الأسيوية والأوروبية الممتدة من آسيا الوسطى حتـى البلقـان والبحـر الادرياتيكي [4].

---

1 المقريزي: المواعظ الإعتبار، ج 2، ص 216 ـ حسن، علـي إبـراهيم: تـاريخ المماليـك البحرية، مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة، ط. ت ص 23 ،24. ماجد: طومان باي أخر سلاطين المماليك في مصر، ص 27ـ 29 . ضومط، الدولة المملوكية، ص 14.

2 متز، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد أبـو ريـدة، فهرسـه رفعت البد راوي، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط 5، م 1، ص 298.

3 متز: الحضارة الإسلامية، م 1، ص 297.

4 المقريزي: الخطط ج4، ص 218. عاشور، سعيد: المجتمع المصري في عصر الـسلاطين المماليك، دار النهضة العربية ـ القاهرة ، 1962، ط1، ص14.

وهذا يوضح وجود شروط خاصة بهذه الطبقة وهي شروط قريبة أو مطابقة لطبقة الارستقراطية البعيدة عن شروط الطبقات الدنيا لذلك سموا أنفسهم بمماليك لان نظرتهم لأنفسهم نظرة أرستقراطية .

واختص هذا اللقب الرقيق الأبيض دون الأسود، لأنه ليس كل العبيد ماليك[1]، مشيراً إلى عبوديتهم المؤقت التي يعقبها الانطلاق في ميدان الحرية وان هذه العبودية تختلف اختلافاً كلياً عن العبودية الحقيقية بأنها معقوبة بالتحرر بعد فترة زمنية.

فالمماليك عِلية الرقيق كانت لهم امتيازات الطبقة الحاكمة في مجتمع الأحرار، إذ كان السلطان في حال شرائه لعدد من المماليك، فإنه يرسلهم إلى الأطباء لفحصهم ثم ينزلهم في طبقة جنسهم فيتسلم الطواشي المقدم على الطبقة، حيث خصص لكل من هذه الطباق فقيه يحضر إليها لتعليم المماليك القرآن، والخط وأحكام الدين وآداب الشريعة. فإذا كبر المملوك وأدرك سن البلوغ بدأ تعليمه فنون الحرب من رمي النشاب واللعب بالرمح وركوب الخيل وأنواع الفروسية، وحين انتهاء المملوك من هذه المرحلة التعليمية ينتقل إلى الخدمة ويمر بأدوارها رتبة بعد رتبة حتى يصير من الأمراء [2].

وعلى الرغم من ذلك كانوا منعزلين عن بقية الشعب منكفيين على طباعهم وأنفسهم وسبب هذه العزلة هو المحافظة على ارستقراطيتهم من أجل الوصول إلى العرش [3].

هذا بعكس العبيد الذين جلبوا للعمل في الفلاحة، والأعمال الشاقة، والأعمال المنزلية، والبعض منهم التحق بالجيش وأعمال الدولة وإشارة ذلك "تسلم كافور وهو احد العبيد في محل الإخشيد في حكم مصر" ومن هذه الاختلافات اختلفت المسميات لشيء الواحد الذي يحمل نفس الصفات مع اختلافٍ بسيط في هذه الخصائص، وهذا

---

1 أنظر حسن: المماليك البحرية ، ص 27.

2 القلقشندي، ج4 ، ص472

3 الحسين، قصي: الأدب العربي في العصرين المملوكي والعثماني، المؤسسة الحديثة للكتاب – لبنان، 2006م، ص13

التعداد اللفظي ظهر بسبب امتزاج الشعوب وتبادل الثقافات مما ساهم في إيجاد مصطلح جديد في أجندة اللغة العربية لتدال على تمايز هذه الفئة من الرقيق عن بقية الفئات التي جاءت من خارج العالم الإسلامي لتميز نفسها بحريتها المفتعلة القائمة على إثبات الذات .

فلو أمعنا النظر جيداً في لفظ عبد أو عبيد ومملوك أو مماليك من حيث التركيب اللفظ .

فكلمة عبد / عبيد ـ لو جزأت على هذا النحو:

عبء يد

وبذلك تصبح لدينا عبارة مكتملة المعنى تعني إي أنهم يبقون عبيد لا يحركوا ساكناً مقيدين بقيود العبودية التي أوجدت لهم من أجل الخضوع تحت نير العصبية الطبقية .

أما كلمة مماليك ـ مما ـ إليك

مما = من : تفيد التجزئة

ما : بمعنى اسم الموصول الذي

تصبح لدينا عبارة كاملة المعنى(من الذي إليك) وتعني أنك تملكهم ولا تملكهم .

ومن خلال التفصيل المختصر لكلمتي عبيد ومماليك لاحظنا الفرق أيضا وهذا ما أوجده امتزاج الشعوب واتحاد الثقافات.

وإذا كان هذا اللقب جاء نتيجة تطور العصر وتقدمهِ فإنه يدل على أننا عملنا على استبدال لفظ عبد أو عبيد بلفظ مماليك وهذا يتطلب منا أن نتخلى عن مصطلح من مصطلحات لغتنا العربية لكي نحيل مكانه آخر ليطلق على الطائفة المجلوبة أو على أي شيءٍ محدث في العصر حتى يتماشى مع حياة البذخ والترف، أي نَقْرض فيه أشياء ونحيل مكانها أخرى والجوهر ثابت وهذا يعود إلى وجود وجه جديد لعملة ثقافة العيب التي نعالجها بإسلوب الانتقاء .

لكن ثقافة العيب التي سنتحدث عنها هنا مغايرة لثقافة العيب السابقة، فكلنا نعلم أن " ما كان يصل إلى بلاد التركستان من الأقاصيص عن أحوال المماليك في مصر وما يذاع عن ثورة الناس بالقاهرة كان باعثاً لكثير من أهل تلك البلاد على

بيع أولادهم وبناتهم ليكونوا في حاشية سلطان مصر"[1]، " فما دفع الآباء أيضاً إلى تدريب أبنائهم وبناتهم على الحرف التي تعجب أصحاب هذه القصور، كالموسيقى والغناء والرقص والشعر وغيرها[2]، وبعدها يعرضون أبنائهم للبيع على أنهم أرقاء ورقيات إما عرض مباشر أو عن طريق النخاس".

ومن خلال ذلك قد تكون التسمية بمماليك تكونت لدى الأهالي الذين باعوا أبنائهم للأسباب السابقة مما أشعل الشرارة الأولى في إيجاد هذا المسمى على هذه الطائفة لكي يثبتوا لمن رفض بيع أولادهم بان أولادهم أصحاب أملاك ليسوا عبيداً مهضومي الحقوق كما هو معروف لدى الناس بأن العبد ليس له حقوق هذا من جانب ومن جانب أخر لكي يقضوا على ثقافة العيب التي تؤرق الآباء أنهم أسياد في بلاد غيرهم وحتى يثبتوا للعالم الإسلامي أن ليس كل العبيد رقيق بل لهم ما يميزهم كما اسماهم أدم متز "استقراطية العبيد"[3] واحمد الشلبي بأنهم رق صناعي".

والمتأمل في هذا المسمى يلحظ إنحناء المؤشر من الجانب السلبي للإيجابي وذلك بتحول مداوله من العبودية إلى الحرية، وذلك لتغير العصر وتقدمهِ وامتزاج الشعوب.

ولكن الظروف التي مر بها المماليك كان لها الدور الأكبر في هذا التحول ولاسيما الظروف السياسية التي مرت بها البلاد من هجوم الصليبيين والمغول وتعد معركة عين جالوت هي أول نقطة وضعت على السطر في هذا التحول مما أعطاهم الشرعية في الحكم. فكانت دولتهم وليدة الانتصارات التاريخية الحاسمة إلى جانب هذه الظروف تأتي قضية العتق، إذ يحصل المملوك على حريته بعد بلوغ الشباب وإنهاء تدريبه، لكنه يبقى على ارتباط بسيد يخدمه ويخلص له إلا أن هذه الحرية حرية جسدية شكلية بعبودية معنوية، حيث نجد الأرقاء العتيقين قد بلغوا أكبر مكان من الرفعة، وأطاعهم الأحرار، ولكن لم ينجح المعتُقون في أن يتفوقوا على الأحرار في الشرق مدة طويلة إلا نادراً، ومن الملاحظ أيضاً أن صفة العتق ملازمة للمماليك

---

1 حسن: المماليك البحرية، ص 25.

2 الشلبي: مقارنة الأديان (الإسلام)، ج 3، ص244.

3 أنظر متز: الحضارة الإسلامية، ص 311. حسن: المماليك البحرية ص 23

أكثر من العبيد وذلك لوجود ما يعرف بالدراسة الخاصة لهم وتربيتهم ومن بعـدها يعتق بعكس العبد لأنهم لم يسمحوا بأن يملكهم إلا أبناء جنسهم.

وفي الختام نجد أن الظروف التي ساندت ظهور هذا المـسمى كثيـرة، كلهـا تضافرت حول هذا المصطلح من أجل إبرازه على صورته النهائية فـإن اخـتلاف أماكن الجلب سواء للمماليك أو العبيد وامتزاج الشعوب وتبادل الثقافات كان له الدور الأبرز في إظهار هذا المسمى ما يدل على قدومهِ من الخارج مع من جـيء بهـم للبلاد الإسلامية.

حيث استخدمت مماليك إلى جانب لفظ عبيد وذلك لوجود مميزات تميـز كـل طائفة عن الأخرى كما أشرنا سابقاً، وأن الرقيق صار مختلطاً متنوعاً تنوع الـبلاد التي فتحها المسلمون [1] وهذا ما أكده أحمد العبادي بأن التسمية اقتصرت في معظم الدول الإسلامية المتأخرة على فئة الرقيق الأبيض[2].

---

1 العبادي، أحمد: قيام دولة المماليك الأولى، مؤسسة شباب الجامعـة – الإسـكندرية، د. ت، ص14 .

2 العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص11